
روايات مصرية للجيب
5
فانتازيا
ذات مرة فى الغرب
Looloo
www.helmelarab.net

مقــدمة

اسمها (عبير) ...

لم يكن لها نصيب من اسمها ... فهى تفتقر إلى الجمال الذى يوحى به الاسم .. إنها سمراء نحيلة بارزة عظام الوجنتين ، باردة الأطراف .. ترتجف رعبًا من أى شىء وكل شىء ...

إنها حتى غير مثقفة .. وبكل المقاييس المعروفة لا تصلح كى تكون بطلتنا .. أو بطلة أى شخص سوانا ..

هى لا تلعب التنس ، ولا تعرف السباحة ، ولا تقود سيارات (الرالى) ، وليست عضوًا فى فريق لمكافحة الجاسوسية ، أو مقاومة التهريب ..

لكن (عبير) ـ برغم ذلك ـ تملك أرق روح عرفتها فى حياتى .. تملك إحساسًا بالجمال ورفقًا بالكائنات .. وتملك مع كل هذا خيالاً يسع المحيط بكل ما فيه ...

لهذا أرى أن (عبير) هى ملكة جمال الأرواح ، إذا وجد لقب كهذا يومًا ما ..

ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة ...

ستكون بطلتنا الدائمة .. ولسوف نتعلم معًا كيف نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرقًا إذا ما حاق بها مكروه ....

ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم .. ولأنها تختزن فى مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية ، وآلاف الأحداث التى خلقها إبداع الأدباء عبر العصور ..

لذلك وقع عليها الاختيار كى ترحل إلى (فانتازيا) ..

(فانتازيا) أرض الأحلام التى لا تنتهى ..

(فانتازيا) حيث كل شىء ممكن .. وكل حلم متاح ..

(فانتازيا) جنة عاشقى الخيال .....

ولسوف نرحل جميعًا مع (عبير) .. سنضع حاجياتنا وهمومنا فى القطار الذاهب إلى (فانتازيا) ..

وهناك سنتعلم كيف نحلم ...

إن صفير القطار يدوى ، والبخار يتصاعد حول قاطرته ..

هو ذا جرس المحطة يدق .. إذن فلنسرع ..!..

لقد حان موعدنا مع الأحلام فى (فانتازيا) ..

* * *

١ ـ صحارى أوكلاهوما ..

لأنها تنتمى إلى هناك !

هذا هو السبب الوحيد ـ فيما أرى ـ الذى يجعل (شريف) يخضع بهذه البساطة لرغبة (عبير) العارمة فى العودة إلى (فانتازيا) ..

لأنها تنتمى إلى هناك ..!

ليس (شريف) ضعيف الشخصية .. وليس أحمق .. لهذا أرجح أن هذا هو السبب الوحيد الذى جعله يقبل ..

إنها تنتمى إلى هناك ..!

ربما قلنا : إن الاكتئاب داهمها بعد فراق الجوّال ..

ربما قلنا إن رتابة الحياة الزوجية تضايقها أحيانًا ..

ربما قلنا إنها خيالية واهنة فى مواجهة الواقع ..

لا يهم .. فكل هذه كلمات .. وما أسهل الكلام .. أما الحقائق فتقول بكل وضوح :

إنها تنتمى إلى هناك !

* * *

من جديد تقف (عبير) فوق الهضبة ترمق (فانتازيا) تمتد أمامها إلى ما لا نهاية ..

جاء (المرشد) فى رفق من ورائها .. عرفت قدومه من صوت الـ (تتك ـ تتك) المميز للقلم الذى يحمله ..

قال لها وهو يضع يده فى جيبه :

ـ « مرحبًا بك يا (أليس) ! »

ـ « (أليس) ؟ »

ـ « طبعًا .. (أليس) فى بلاد العجائب .. أنت أقرب ما يكون إلى شخصيتها .. ألا ترين ذلك ؟.. أنت ضيفتنا فى أرض (أبدًا ـ أبدًا) كما يقول الإنجليز(*) .. »

ـ « فليكن اسمها (أبدًا ـ أبدًا) أو (هريدى) .. لا يهم .. المهم أننى أحبها هكذا .. »

ـ « لم تتأخرى كثيرًا فى العودة .. ألم أقل لك : إن زياراتك ستزداد بعد الزواج ؟ »

أزاحت شعرها إلى جانب .. وهمست :

ـ « بلى .. قلت لى .. لكنى ـ أقسم ـ لست تعيسة أبدًا فى زواجى .. إن (شريف) ملاك حقيقى ، ولم أكن لأحلم بمثله خاصة فى ظروفى .. أنا التى لا أملك شيئًا ولا أتمتع بأية موهبة .. »

(*) Never-never land

داعب القلم وثبت عينيه فى عينيها :

ـ « ولكن ...؟ »

ـ « ولكن لا أجد طعم (فانتازيا) الساحر فى أى شىء .. ثم إن (شريف) صار أكثر انشغالاً .. وأنا أحتل فى عالمه ركناً صغيراً جداً جوار عالم (الكمبيوتر) ، وعالم الإلكترونيات .. »

ـ « تك تك ! »

وابتسم فى خبث .. وأردف :

ـ « خذى الحذر .. فلربما كان يراقب حديثنا هذا الآن على شاشة (الكمبيوتر) الخاص به ! »

ـ « ليته يفعل .. »

قال لها وهو يرمق الوادى البعيد :

ـ « هل ترغبين فى زيارة عقلك الباطن ؟.. إن له مكاناً هنا .. لكنى أحذرك من أنك لن تحبى كل ما ترين هناك .. إن هذا المكان يحوى أبشع أحقادك ورغباتك وكل ما فشلت فيه ، وكل ما تخشين .. ، يقولون إن أفظع الوحوش هى نحن .. وأسوأ اللحظات هى حين تلقين نفسك دون ستار .. »

تنهدت وقالت فى ملل :

ـ « كأن هذا ينقصنى !.. لا وحياتك .. دعنى أجهل عن نفسى كل ما لا أرغب فى معرفته .. »

ـ إذن هلمى نركب قطار الأحلام .. »

* * *

مرّ القطار جوار قلعة (دراكيولا) والبرق يضربها .. فتبدى معالمها المرعبة لثوان .. ثم يعود الظلام ..

تنهدت (عبير) إذ تذكرت رحلتها المروعة داخل هذه القلعة .. ومع البارون (هلسنج) ..

سألت (المرشد) فى شرود :

ـ « هل أستطيع أن أعود لذات المكان مرة أخرى ؟ »

واصل ضغط القلم .. وغمغم :

ـ « سؤال غريب .. بالطبع تستطيعين .. لكن هل أنت حقاً فى ذلك راغبة ؟.. نحن لم نر واحداً فى الألف من (فانتازيا) بعد .. فلماذا تضيعين وقتك ؟ »

ـ « لا شىء .. كنت أتساءل فحسب .. »

كانت تحلم بالعودة لتموت مع الجوّال .. أو تخوض مغامرة أخرى مع (٠٠٧) .. أو تعرض مشكلة أخرى على (هولمز) ..

لكنها لم تنس بعد ما قاله لها (المرشد) : إن (فانتازيا) تتبدل باستمرار .. وليس حتمياً أن تجد القصص حيث تركتها ..

كان هذا حين رأت واديًا مترامياً تحرق الشمس أرضه المتشققة .. نباتات الصبّار فى كل صوب .. وأنشودة الوحشة تتردد دون كلل ..

ـ « أين نحن يا (مرشد) ؟ »

ـ « هذه صحراء فى الغرب الأمريكى .. إنه عالم قصص (الوسترن) .. هل قرأت شيئاً منها ؟ »

ـ « ليس تماماً .. إن (فانتازيا) تحوى خبرات كثيرة استمددتها من جهاز (التلفزيون) أو السينما »

ـ « إن الخيال هو الخيال .. لكن السينما تسلبك نعمة (التخيُّل) وهى المتعة الكبرى التى تهبك إياها القراءة »

قالت وهى تشهق لتتخلص من الشعور بالحرارة :

ـ « هذا صحيح .. إن السينما تضع خيالاتى فى قالب معدّ مسبقاً قد لا يروقنى كثيراً .. ولكم من مرة رأيت فيلماً عن رواية شهيرة ثم زلزلنى الشعور بأن (الأمور لم تكن هكذا فى خيالى) ..

ثم نظرت خارج القطار وهتفت :

ـ « دعنا نجرب هذا العالم أيها (المرشد) .. »

ـ « إن أحلامك حقائق يا (أليس) .. »

ـ « (عبير) ! »

ـ « يا (عبير) ! »

وجذب الحبل ؛ ليوقف القطار .

ساعدها على النزول .. وكانت هناك جمجمة لثور ترى فوق الرمال تحاشتها (عبير) .. ونظرت إلى الأفق :

ـ « هل سيحدث شىء ما ؟ »

قال لها وهو يبتسم كأنما يخاطب طفلاً :

ـ « طبعاً .. ليس من مصلحة أحد شيك حية فى هذا الجحيم .. لو أنك هلكت ستزول (فانتازيا) من الوجود .. وسأجد نفسى دون عمل .. »

لم تضحك .. وسألته بصيغة رسمية :

ـ « من أنا هذه المرة ؟ »

تأملها فى اهتمام .. ثم غمغم :

ـ « لنر .. إن ملامحك لا تصلح لتكونى مهاجرة أمريكية من الشرق .. أو خادمة صينية .. ، إذن ستكونين (صخرة الماء) .. لك أصل هندى وأب أمريكى .. »

ـ « (صخرة الماء ؟) » ـ ومطّت شفتيها مفكرة ـ « لا بأس به .. فيه شاعرية فظة .. كانت أمى تدللنى أحياناً بـ (طوبة) .. لكن ذلك كان فى أوقات الرضا بشكل خاص .. »

ـ « من يدرى .. ؟.. لعل (صخرة الماء) تكرار للاسم ذاته من عقلك الباطن .. »

وحين نظرت (عبير) إلى قدميها ؛ عرفت أنها ترتدى حذاء من جلد الجاموس .. وثوبًا طويلاً من ذات الجلد .. وعرفت أن هناك ضفيرتين جميلتين على كتفيها .. وخنجرًا فى نطاقها .. كما عرفت أن ساعديها امتلأ بالحلى والأساور ..

أما آخر ما عرفته ، فهو أن (المرشد) رحل كالعادة ..

* * *

٢ - إخوان الدم ..

الشمس تنحدر غربًا ، وقد بلغ حجم قرصها حدًا غير معقول .. حمراء بلون الدم تخضب الرمال بدمائها ..

لقد وُجدت (أمريكا) لأن بعض سكان الشرق صمموا علىٰ أن يطاردوا هذا القرص الأحمر فى رحلته المحمومة نحو الغرب .. وأن يلحقوا به قبل أن يذوب للأبد فى مياه المحيط السرمدية ..

* * *

فى ضوء الغروب الأرجوانى تتقدم ستة أفراس فى تؤدة .. يقطع عليها الطريق فرس سابع ..

و (عبير) لا ترى وجوه الراكبين ، لكنها - بوضوح - ترى ظلالهم .. وتعرف أنهم يرتدون قبعات واسعة ، وعباءات تتطاير أطرافها كلما تحركت الخيول ..

الأفراس تقف صفًا واحدًا كأنما هى بانتظار شىء ما .

بعد دقائق يدوى صوت راكب الفرس السابع ، وقد وقف أمامهم كأنما سيلقى عليهم محاضرة :

- « ماذا تبتغون ؟ »

- « الدم ! »

يدوى الصوت جماعيًا رهيبًا صادرًا من ست حناجر غاضبة .. ويعود الأول يسألهم :

ـ « وماذا جاء بكم ؟ »

ـ « الدم ! »

ـ « كم تدفعون لأجله ؟ »

ـ « أرواحنا ! »

ـ « متى تكفون ؟ »

ـ « حين نرتوى ! »

ـ « ومتى ترتوون ؟ »

ـ « حين يسود العدل ، وتنام الحملان جوار السباع ! »

ـ « إخوان ؟ »

ـ « إخوان الدم ! »

وعاد السكون ينسج عشّه ببطء فوق الرمال ، بعد ما مزقته الصيحات .. وعرفت (عبير) أن ما جرى هو نوع من الطقوس تمارسها جماعة ما .. نوع من ترديد ميثاق العهد ..

ولكن من هؤلاء ؟.. وماذا يريدون غير الدم ؟!..

هى ـ عمومًا ـ غير راغبة فى تقديم نفسها إلى هؤلاء السادة ذوى الميول الدموية ..

ولمحت خيولهم تنصرف من موضعها ، حيث رقدت

على بطنها فوق الرمال ترمق ما يحدث فوق مرتفع ..

سبعة ظلال مهيبة تبتعد نحو الغرب .. نحو قرص الشمس الهائل ذاته ، كأنما لتذوب فيه ..

وحين رحلوا ـ أخيرًا ـ راحت تهبط المرتفع ..

يا لرشاقتها !.. إنها تشعر بأنها أخف من أرنب صغير .. وهى تجيد الانزلاق على الرمال ، كأنما تفعل هذا منذ صغرها ..

سمعت صوت همهمة ..

لم يكن هذا سوى جواد .. جواد رشيق بارع الجمال يقف بانتظارها وقد راح يعابث الرمال بحافره ..

وأدركت أن هذا هو جوادها بالذات ..

دنت منه وربتت على منخره مداعبة .. هى لم تلمس جوادًا فى حياتها ، لكنها تحب الجياد بجنون .. إن العلاقة بين المرأة والجواد لعلاقة أزلية أسطورية تحتاج إلى خبير فى علم النفس ليفسرها .. ما هو أول حلم تراه فتاة مراهقة ؟

دائمًا هو حلم الفارس الذى يختطفها فوق حصان أبيض ..

إن الحصان هو معادل لروح الأنثى القلقة الراغبة فى الفرار .. بعيدًا .. بعيدًا ..



سبعة ظلال مهيبة تبتعد نحو الغرب .. نحو قرص الشمس الهائل ذاته كأنما لتذوب فيه ..

ولم يكن الحصان مسرجًا .. لكنها أدركت أنها قادرة حتمًا على ركوبه .. لِمَ لا ؟.. أليست هندية ..؟.. أليست هذه (فانتازيا) ؟.

وبالفعل ..

وثبت دون جهد إلى ظهره ، ولفّت ساقيها حول جذعه .. ثم ضربت عنقه براحتها ، فانطلق يركض فوق الرمال ..

إلى أين ؟.. لا تدرى ..

بالتأكيد هو يعرف .. أما هى فقد ذابت فى هذا الحلم الذى لا يوصف .. إنها تركب جوادًا ينطلق بها نحو قرص الشمس الغارب ..

الموجودات تبرد .. واللون الأرجوانى يدخل نطاق الأزرق ..

وحرارة الجو تقل تدريجيًا ..

ومن بعيد ترى أشجارًا .. ونارًا .. وبشرًا ...

* * *

كان المشهد معقدًا إلى حد غير عادى ، ولم تحسب قط أن كل هذا ممكن .. وأن خيالها بهذه الخصوبة .. معسكر هندى كامل متكامل .. بخيامه المزركشة ..

وخيوله .. وأطفاله العراة .. وكلابه .. ونسائه اللواتى ينشرن اللحم المقدد على حبال كحبال الغسيل .. ورجاله الجالسين حول النار .. والطوطم الواقف فى منتصف المكان .. عمود طويل من الخشب نقشت عليه وجوه مخيفة مجسمة ..

وقفت مشدوهة ترمق كل هذا ، وتصلبت أناملها حول عنق الجواد .. بالتأكيد هى تنتمى إلى هنا ..

رأت رجلاً عارى الجذع قد حلق أكثر شعر رأسه تاركًا خصلة فى المنتصف ، كما يفعل شباب هذه الأيام بموضة (البانك) .. رأته يتقدم منها وعلى وجهه علامات التساؤل فيساعدها ـ بيد فولاذية ـ على النزول من فوق ظهر الجواد ..

ثم يسألها بصوت خشن :

ـ « ماذا وجدتِ (صخرة الماء) ؟ »

كان يتحدث بلغة غريبة مليئة بالهاءات والواوات ..

لكنها تفهمه تمامًا .. كما هى العادة فى (فانتازيا) حيث لم تعد اللغة تمثل مشكلة من أى نوع ..

قالت بصوت مماثل فى الخشونة ، وبذات اللغة :

ـ « (صخرة الماء) وجدتْ وجوهًا شاحبة .. سبعة »

ـ « وماذا كانوا يبتغون ؟ »

ـ « تحدثوا عن الدم .. قسم الدم .. »

ـ « آه ! »

حتى تعبيراتها صارت مختلفة .. شاعرية قليلاً .. كما تعوّد الهنود الحمر أن يتكلموا فى كل الأفلام التى رأتها ..

قادها الرجل إلى مجلس النار .. ، فرأت حوالى خمسين رجلاً جالسين حول عجوز متهدم .. وإن بدا أنه يمثل ثقل الزعامة هنا .. له عينان ذابلتان زجاجيتان ، وفم جعلته التجاعيد كثمرة طماطم نسيتها شهرين فى ثلاجتك ..

وكان يدخن من ذلك الغليون الطويل المعلق به ريش ، والذى يدخنونه دومًا ..

جلست جوار الرجل الأول بقرب العجوز .. وانتظرت أن يحدث شىء ما .. لكن شيئًا لم يحدث !..

ربع ساعة كامل من الصمت الذى له رائحة التبغ !

متى يتكلم هؤلاء الحمقى إذن ؟...

بعد ربع ساعة آخر بصق العجوز فى النار .. وناول غليونه للجالس جواره .. ، وهنا قال له الأول :

- « يا خمسة نمور .. إن (صخرة الماء) قد عادت من جولتها .. »

- « هووووووم ! »

- « تقول : إن هناك وجوهًا شاحبة .. »

- « هووووووم ! »

- « من المحظور عليهم دخول أرض (السيوكس) .

- « هووووووم ! »

- « إن (ذو الدمامل) يرى - بوصفه ابن (خمسة نمور) - أن هذا خرق للهدنة لن يمر دون عقاب .. »

- « هووووووم ! »

ونهض الفتى - الذى عرفنا أنه (ذو الدمامل) - وأخرج فأسًا صغيرًا من نطاقه .. ولوّح به عاليًا :

- « الموت للوجوه الشاحبة !.. إن الطيب فيهم هو الميت ! »

فتعالى صراخ الرجال رفيعًا كسحلية مصابة بالبواسير :

- « هىىىىى ! الموت لهم ! هىىىىى ! »

جلست (عبير) ممتقعة الوجه ترمق هذا الذى يحدث ..

كل شىء يبدو واقعيًا مخيفًا مريعًا ..

إن هذا الجو الوحشى الوثنى لا يناسبها حتمًا .. خاصة أنها - للمرة الثانية - تدرك أنها تلعب دور المخبر أو الجاسوس ..

فى المرة الأولى مع (جالاكتينا) فى مجرة أخرى .. والآن مع (السيوكس) هاهنا ..

شحب وجهها .. ثم تذكرت أنها تجازف بحياتها لو صارت وجهًا شاحبًا .. من ثمّ اكتفت بأن يمتقع وجهها !

للمرة الأولى تسمع صوت الزعيم يقول شيئًا آخر غير الـ (هووووم) ..

وكان صوتًا واهنًا فيه برد الشتاء ومرارته :

- « إننى أنتظر اللحاق بأجدادى فى أية لحظة .. لكنى أكره أن أترك أبنائى الثمانية يتخبطون فى الدماء ... إن الوجوه الشاحبة أقوياء ولديهم مدافع .. لهذا أرى أنه من الشجاعة أن نتريث ونعرف نواياهم .. قد يكون من رأتهم (صخرة الماء) عابرى سبيل ضلوا الطريق .. الحروب يا أبنائى لا تبدأ من استفزاز غير مقصود .. ، وأرى أن الصواب يقتضى أن نعرف المزيد عنهم وعن نواياهم ، و (صخرة الماء) خير من يفعل .. لأنها تعرف لغتهم ولأنها منهم من ناحية الأب .. ولأن

(خمسة نمور) يعرف أنها هندية تماما برغم ما لوث دمها من دماء الوجوه الشاحبة »

ومدّ يده يتناول الغليون .. وأردف :

- « لقد قال (خمسة نمور) كلمته ! »

عندئذ ساد الصمت ..

وعرفت (عبير) أن مهمتها قد تحددت ..

ولا مجال للنقاش ..

* * *

٣ - مهمة سرية ..

دخلت (عبير) إلى الخيمة التى فهمت أنها دارها .. داخل الخيمة مظلم لكنه رطيب منعش ..

وكانت هناك جلود عديدة معلقة ، ومفروشة على الأرض ، وعجوز جالسة تلتهم شيئًا ما فى طبق ..

فما إن رأت (عبير) داخلة حتى هتفت :

- « عندك بعض القديد .. يمكن أن تأكليه .. »

تحسست (عبير) المكان فى حذر .. وجلست جوار المرأة وتأملتها .. هذا ما توقعته منذ سمعت الصوت .. إنها أمها .. فى الواقع وفى الخيال .. هى ذاتها ..

لشدّ ما أبدى (دى - جى - ٢) براعة مذهلة فى وضع اللمسات المتممة لوجه العجوز الطيب ..!.. لقد ضفّر خصلات شعرها الأشيب .. وجعلها ترتدى ثوبًا من جلد الثيران .. وأضاف بعض تجاعيد (هندية) على ركنى فمها ..

طبعًا لن تحدثها (عبير) عن (غمرة) وعن حياتهما .. بل ستحدثها باعتبارها عجوز (السيوكس) .. أمها .

قالت (عبير) وهى تلتهم ما بطبقها :

- « الزعيم يريد أن تذهب (صخرة الماء) إلى الوجوه الشاحبة .. »

- « حسنًا رأى .. وماذا قال أخوك ؟ »

- « أخى ؟ »

- « نعم .. (ذو الدمامل) .. كيف يرى ذهابك ؟ »

إذن (ذو الدمامل) هو أخوها .. ولكن كيف ؟.. لابد أن أمها تزوجت مرتين .. ، ولكن معنى هذا أن الزعيم الهندى تزوج من مطلقة الرجل الأبيض .. فكيف ؟ ..

قالت الأم وهى تلوك شيئًا :

- « أنت شجاعة كأبيك .. كان خير من يضرج الثيران بالدماء ، ولكم من مرة رمى بنفسه إلى أحضان دب ثائر ؛ ليمزقه بمديته ..

وحين قال لى (أحبك يا بصقة الجاموس) .. لم أستطع أن أرد .. جريت إلى خيمتى وتركته واقفًا جوار الينبوع غير فاهم لشىء .. ، كان يتردد علينا كثيرًا .. ليبيع لنا التبغ والبنادق .. الجميع كان يحبه وخاصة أنا ، لكن قوانين (السيوكس) صارمة .. لا يمكن لذى وجه شاحب أن يتزوج فتاة هندية .. ، وفررت معه فى ليلة صيف باسمة .. مضينا إلى الوديان البعيدة وبنينا

كوخًا عشنا فيه .. وتزوجنا .. ورزقنا بك .. ، كانت تلك أيامًا مجيدة .. ! »

قالت (عبير) محاولة أن تبدو عليمة بالأمر :

- « أظن أن قتل الهنود له كان أليمًا ؟ »

- « لم يقتله الهنود .. بل ذوو الوجوه الشاحبة .. ، كيف نسيت ذلك ؟.. وعدت بك إلى هنا .. فوافق الزعيم على أن نعود للانضمام إلى القبيلة .. بل وزوّجنى ابنه (خمسة نمور) لأنه كان يحبنى منذ زمن بعيد .. ، وهأنذا اليوم زوجة الزعيم وأم أولاده (ذو الدمامل) ، و (الماشى للخلف) و (الكلب السعران) و (السنجاب الأجرب) .. ، وأمك ! »

هكذا فهمت (عبير) العلاقات الأسرية المعقّدة المحيطة بها ، وإن لم تستسغ قط أسماء إخوتها من الأب .. فهى أسماء غير مشرفة ولا توحى بالثقة عمومًا ..

ودعتها المرأة إلى النوم ، فمدّدت جسدها المنهك فوق الحشية شاعرة بقسوة الأرض وخشونتها ..

وأغمضت عينيها .. وراحت تحلم ..

تحلم بالمدرسة .. ومكتب (الكمبيوتر) .. و (شريف) ..

كما قلنا آنفا .. من الطبيعى فى الحلم أن نحلم بالواقع .. كما أن نفى النفى إثبات ..

* * *

صحت من النوم شاعرة بشعور ألف لصٍ ركلتهم أحذية ألف شرطى فظ ، إذ قبض عليهم متلبسين بالنشل فى الزحام ..

وأدركت أن هناك من يهزها .. كما أدركت أن الديك يصيح ثلاثًا .. وأدركت أن الظلام مخيم بالخارج ..

عادت تواصل النوم .. لكن الهزّات صارت أكثر عنفا .

وسمعت من يقول لها :

ـ « هيا ..!.. قد تأخر الوقت ! »

صاحت فى حنق :

ـ « ما الذى تأخر ؟.. مازال الظلام دامسًا ! »

ـ « إنه الفجر يا (صخرة الماء) .. وقد صاح الديك ثلاثًا .. »

نهضت مفككة الأوصال منحرفة المزاج .. فوجدت جوارها طبقًا مليئًا بالقديد .. دست فى فمها حفنتين منه .

وخرجت من الخيمة لترى الظلام فى كل مكان ،

ورأت فتيات يحملن بعض الجرار الفخارية .. خطر لها أن المرأة ـ فى كل مكان ـ يكون عليها أن تحمل جرة فخارية فى الفجر ذاهبة إلى النهر .. هذا هو قدرها .

حملت جرتها على رأسها ومشت وراءهن ، وهى تسبّ وتلعن فى سرها .. كل شىء .. الصباح والديك والنهر .. كل هذا يمكنه أن ينتظر قليلاً ريثما تنال قسطًا من النوم ..

راحت الفتيات يمازحنها .. وعند النهر قذفت إحداهن وجهها براحتين مليئتين بالماء .. ، وأدركت (عبير) أنها مصدر تسلية وسخرية دائمتين للفتيات لأنها (خلاسية) .. ولأن منبتها ليس هنديًا نقيًا تمامًا .. حتى ولو كان الزعيم هو زوج أمها ..

جلست على حافة الماء وراحت تملأ جرتها .. وترمق فى الماء صورتها التى راقت لها كثيرًا ..

فجأة دوى صوت الخرير ..

إن صوت الدببة ليس خريرًا فحسب .. بل هو مزيج من هدير وزئير وخوار وعواء وغطيط .. لا يمكن للفظة واحدة أن تصفه ..

خطر لها هذا وهى تسمع الصوت .. وتسمع صراخ الفتيات .. ثم تدير رأسها لترى ذلك الجبل الأشهب العملاق المكسو بالفراء ؛ يبرز من وراء الأشجار فى ضوء الفجر الأرجوانى البكر ..

ورأته يهرع نحوهن فوق أربع .. دب أشهب من النوع الذى يسميه ذوو الوجوه الشاحبة (جريزلى) ... كانت سرعته لا تصدق .. لم تتخيل قط أنه قادر على هذا الانقضاض ..

وحين وقف على قدميه الخلفيتين ، ووجه ضربة بيده المخلبية إلى الفتاة الأولى .. سمعت (عبير) فقرات عنق الفتاة وهى تتهشم .. وسقطت الفتاة أرضًا .. فقضم عنقها .. ثم عاد يهرول قاصدًا حشد الفتيات اللواتى ولولن .. ورمين الجرار أرضًا ورحن يجرين هنا وهناك ..

إنه قادم لى ..!

كانت تعرف هذا وتؤمن به ..

لن يتركها .. سيختارها هى بالذات .. دون الأخريات .

بالفعل رأته يركض نحوها على أربع .. واللعاب مع الدم يتطاير من فيه .. السنام العملاق بين كتفيه يهتز .. والغضب الجشع يلتمع فى عينيه .. و ...

لم تحاول الهرب .. ألصقت ظهرها بشجرة وانتظرت .

وهنا تصلب الدبّ .. كفّ عن التضخم فى عينيها ..

وقف على قدميه الخلفيتين ، وأطلق صرخة مدوية عاتية ارتجت لها الأرجاء .. وفرت الطيور من أعشاشها .. تلك الطيور التى لم تعتد الاستيقاظ مبكرًا .

وهوى الجسد العملاق فوق الكلأ يتحشرج ..

ثم همدت حركته تمامًا ..

وحين فتحت عينيها ؛ كانت أصداء طلقة الرصاص تتردد فى الأجواء .. ورأت فارسًا يركب جوادًا وقد أمسك ببندقية يعيد حشوها بالرصاص ..

كان يرتدى قبعة .. ولثامًا .. وعلى كتفيه عباءة تتطاير أطرافها فى الهواء .. والدخان ما زال ينبعث من فوهة سلاحه ..

وقف ثانيتين ليرى ما إذا كان الدبّ ما زال حيًا ..

ثم جذب لجام فرسه ، فانطلق ، ليختفى بين الأشجار .

* * *

إخوان الدم !..

حتمًا هو منهم .. يلبس مثلهم .. ويبدو مثلهم ..

وقد أنقذ حياتها فى اللحظة الأخيرة ..

* * *



كان يرتدى قبعة .. ولثامًا .. وعلى كتفيه عباءة تتطاير أطرافها فى الهواء ..

فيما بعد قال لها (ذو الدمامل) :

ـ « لا عليك .. إن مهاجمة الدبّ للنسوة عند النهر جزء تقليدى فى أية قصة تدور عند الهنود .. لابد من دبّ .. لكن المشكلة تكمن فى الرصاصة .. من صاحب هذه الرصاصة التى أنقذت حياة (ذو الدمامل) .. ؟ »

قالت له للمرة الرابعة :

ـ « لم أره .. جاءت الرصاصة من بين الأشجار .. »

قال وهو يرى رأس السهم الذى يمسكه :

ـ « لقد مشط رجالنا وكشافونا الأشجار .. ووصلوا حتى وادى الهلاك .. لكنهم لم يجدوا له أثرًا .. »

ثم أردف وهو يضع السهم فى قرابه :

ـ « يجب أن تذهبى غدًا إلى الوجوه الشاحبة ؛ لتعرفى نواياهم .. »

* * *

وكيف ذلك يا (ذو الدمامل) ؟

إن الأمر ليس يسيرًا .. فلن تذهب (صخرة الماء) إليهم كامرأة نصف هندية .. إن الوجوه الشاحبة لصوص وأوغاد .. ولن يرحموها .. ، سيكون عليها أن تتنكر ، ترتدى ثياب النساء هناك .. وتضع طلاء

شاحبًا على بشرتها من دهن الجاموس .. وتثبت شعرًا
أشقر على شعرها ..

الملابس أمرها هين .. فلدينا ثياب امرأة بيضاء كنا
قد هاجمنا عربة المسافرين التى تقلها منذ عام .. ،
صحيح أنها ملوثة بالدماء لكن النسوة سوف يغسلنها
جيدًا ..

الشعر كذلك هين .. فلدينا فروة رأس ذات المرأة ..
وكنا قد سلخناها لحسن الحظ .. إن (الآباش) الحمقى
لا يحبون سلخ الرءوس ، وهذا يقلل حصيلتهم من
الشعر المستعار ..

أما عن اللغة .. فأنت تجيدينها تمامًا ..

يبقى المبرر لقدومك ..

وهذا سهل .. ستهاجم عربة مسافرين وتدمرها .. ،
بعد هذا تقفين جوارها تبكين .. إلى أن تمر عربة
أخرى .. عندئذ تدعين أن الهنود هاجموا العربة التى
كنت بها ، وأنك نجوت بمعجزة .. وتطلبين توصيلك
إلى المدينة ..

وفى المدينة نريد منك أن تفتحى عينيك وأذنيك كقط
برى يتسلل .. ما هى نواياهم ؟ من أولئك المتسللون
قرب حدودنا ؟ هل توجد حاميات للجنود الزرق ؟

وحين تنتهين .. تفرين فى جنح الظلام عائدة لنا !..
لا تنسى أن تأخذى هذه التعويذة .. ضعيها حول عنقك
كى تحميك .. وخذى هذه أيضًا .. إن الوجوه الشاحبة
تستعملها فى اقتناء الأشياء .. يسمونها (دولارات) ..
فهم متخلفون لا يحبون نظام المقايضة .. ، بل هم
لا يرون أهمية للملح ولا التبغ ولا الحلى الزجاجية
الملونة .. إننى لأسائل نفسى عما إذا كان هناك حد
للغباء البشرى !..

* * *

وهكذا ..

ترون (عبير) الآن وقد تبدلت تمامًا .. هى الآن
أمريكية شقراء ترتدى تنورة واسعة مزركشة وقميصًا
أبيض .. وقد تبعثرت خصلات الشعر الذهبى على
كتفيها .. وبدا عليها الإعياء ووعثاء السفر ..

تقف جوار حطام محترق لعربة مسافرين يتصاعد
منها الدخان ، وقد امتلأ جدارها بالسهام الهندية ذات
الريش .. وهى سهام من النوع الذى يستعمله (الآباش)
طبعًا وليس (السيوكس) .. وثمة بلطة ملقاة على
الأرض .. ورجلان تم سلخ فروة رأسيهما .. وتمرغ
وجهاهما الميتان فى الرمال ..

الطريق يمتد إلى بعيد فى الصحراء .. والقيظ يحرق بشرتها .. فتمد يدها إلى قربة الماء تجرع منها عدة جرعات ..

والآن ترى غبارًا فى الأفق ..

وترى عربة تجرها أربعة جياد .. يلهب ظهرها بالسوط حوذى بدين يضع زجاجة خمر فى جيبه ..

العربة تدنو أكثر .. والآن يراها الحوذى فيشد اللجام بعنف وتنغرس الحوافر فى الرمال ..

ـ « أوهيه !.. فتاة هاهنا ؟ »

فتدنو منه (عبير) لتقول لاهثة :

ـ « (الأباش) ! هاجموا العربة .. نجوت بأعجوبة ! »

هرش الرجل عنقه ورأسه .. وتجشأ .. وقال :

ـ « تبًا لهؤلاء الوثنيين .. إن الهندى الطيب هو الذى مات ..!.. إن الجنرال (سكوت) يعرف حقًا كيف يعامل هؤلاء .. »

كان ثملاً .. عرفت هذا من أنفه المحمرّ الغارق فى العرق ..

هذه هى قواعد قصص (الوسترن) .. الحوذى لابد أن يكون بدينًا ثملاً .. كما أن قواعد القصص الروسية

تحتم أن يكون الإسكافى (ثملاً) وأحمر الأنف (كسرطان البحر المسلوق) ..

قال لها وهو ينزع قبعته ؛ ليبدو راقيًا :

ـ « من أنت يا سيدتى ؟ »

ـ « أنا .. أنا (شارون ستون) .. من (أوهايو) »

لم تجد اسمًا أمريكيًا آخر فى ذهنها سوى اسم هذه الممثلة التى ترى صورتها أحيانًا فى صفحة السينما بالجريدة ... من العسير أن تجد اسمًا حين تبحث عنه ..، وعلى كل حال واضح أن الحوذى لا يتابع السينما العالمية لحسن الحظ ..

ـ « إذن .. اركبى .. نحن ذاهبون إلى (هيل تاون)(*) »

برشاقة دارت (عبير) وفتحت باب العربة الخشبى .. وصعدت لتدس جسدها بين الركاب ..

وبدأت العربة تتأرجح ببطء نحو المدينة ..

لقد انتهى الجزء الأول من الخطة .. دون مشاكل ..

* * *

(*) مدينة الجحيم.

٤ - إلى (هيل تاون) ..

راحت (عبير) فى حذر تتأمل الجالسين معها فى العربة ..

أما هذا البدين المتأنق الذى استرخى كرشه أمامه ، واسترخت كفاه متشابكتين على كرشه ، وأرجع رأسه للوراء غارقًا فى غطيط عال .. فهو نمط .. نمط الثرى الاستغلالى الجبان إلى حدٍ ما .. ، إنه من أنماط البشر التى لا تحتاج لمزيد من التعمق .. كما أنك لست فى حاجة لشرب كوب العصير كله ؛ لتعرف أنه حامض ..

أما هذه المرأة التى ترخى نقابًا على وجهها ، تبدو من ورائه عيناها النفاذتان اللتان ترمقان (عبير) كغراب .. فلا يمكن التكهن بشخصيتها ..

بعد هذا يوجد كهل يرتدى السواد ، وقبعة سوداء على رأسه .. ويمسك الكتاب المقدس يطالعه فى اهتمام .. إنه واعظ من الوعاظ الذين يجوبون الغرب بلا شك ..

ثم - أخيرًا - الشاب المتأنق ذو الشارب الرفيع الجميل ، الذى يقول : إن صاحبه يعانى حالة هيام

مفرط بذاته .. ولم ينفك يتأملها باعتبار هذا واجبه القدرى نحو أية فتاة شابة ..

بعد ثوان انحنت المرأة ؛ لتتناول من حقيبتها القماشية شيئًا ما .. وناولته لـ (عبير) ..

كان هذا الشىء شطيرة .. وقالت لـ (عبير) فى صرامة :

- « لابد أنك جائعة .. »

قضمت (عبير) قضمة ، وبفم ملىء بالطعام غمغمت :

- « حقًا .. أشكرك .. »

- « إن شكلك مروع ..! »

- « لقد هاجمنى (الأباش) منذ دقائق .. »

- « هذا ليس مبررًا .. » - ومطت شفتيها مشمئزة - « المرأة الأنيقة تظل أنيقة حتى وهى فى معدة حوت ! »

- « ربما ... »

- « ولماذا تسافرين وحدك ؟ »

- « أوه .. كنت مع زوجى .. لكن (الأباش) ... »

- « هذا ليس عذرًا .. » - ثم قالت فى تأفف :

« .. المرأة الطاهرة تفضل الموت مع زوجها على أن تسافر وحدها ! »

هنا فهمت (عبير) ما يحدث .. إن هذه المرأة هى نموذج للعانس التى تمقت الكون والناس ؛ ونتيجة لهذا تغدو من غلاة المتطهرين .. وطليعة المدافعين عن الفضائل .. وهى تجد ذاتها فى لوم الآخرين وانتقادهم .

وهنا اهتزت العربة فطارت المرأة لأعلى ؛ ليصطدم رأسها بسقف العربة .. وسقطت على مقعدها منهكة تغمغم :

ـ « إن هذه المطبات ... »

فى اشمئزاز عميق قالت (عبير) :

ـ « هذا ليس مبررًا .. المرأة الوقور لا يصطدم رأسها بسقف العربة أبدًا ..! »

ـ « هذا حق .. سامحينى .. »

* * *

انحنى الشاب فى رقة ، ونزع قبعته .. وسلط عينيه البنيتين ـ اللتين يظن أنهما تتمتعان بتأثير فتاك ـ على (عبير) وقال :

ـ « لابد أنها كانت تجربة قاسية يا سيدة ؟ »

ـ « (ستون) .. (شارون ستون) .. »

قال فى مزيد من التملق :

ـ « أنا (جيف جولدبلوم) .. محاسب .. أما الآنسة فهى مس (بلومر) .. (إماليا بلومر)(*) وهى فى زيارة لشقيقتها فى (هيل تاون) أما هذا ... »

وأشار إلى الرجل الغافى ..

ـ « .. فهو مستر (فيك جانك) .. تاجر من كبار التجار فى الشرق .. ، أما الأب ... »

وأشار إلى صاحب الثياب السوداء :

ـ « فهو الأب (جيمس كاتريل) .. »

هز الرجل رأسه فى وقار .. وابتسم بركن فيه .. ثم واصل القراءة فى اهتمام ..

ـ « واعظ من الشرق يريد أن يعيد كل هؤلاء الخطاة إلى جادة الصواب .. »

وهنا صاح الحوذى من مقعده ، وهو يجذب اللجام :

ـ « يا للعنة !.. عصابة الـ (بانديتس) ! »

ـ « ماذا ؟ »

بدا الذعر على الجالسين بالعربة ، وتوتر الجميع ..

(*) (إماليا بلومر) هى المجاهدة التى منحت المرأة الأمريكية حق الانتخاب .. يالها من مصادفة !

ونظرت (عبير) من النافذة لترى أربعة رجال على ظهور خيولهم يقفون ليسدوا طريق العربة ، وكان هناك جذع شجرة غليظ ساقط بالعرض ؛ ليزيد صعوبة الفرار .. لا تدرى من أين جاءوا به هنا ..

صاحت العانس فى غل :

ـ « لابد أنك نحس !.. أولاً هاجمك الهنود والآن هؤلاء الأوغاد .. »

كادت (عبير) تحتج بأن هجوم الهنود كان أكذوبة .. لكنها لم تستطع أن تقول هذا بالطبع ، وراحت تراقب ما يحدث فى قلق ..

سمعت أحد الرجال يحدث السائق بلغة فظة :

ـ « هيه .. أنت يا قربة الدهن .. ابق حيث أنت ؛ لأن ثقبًا فى رأسك لن يزيدك جمالاً .. »

ثم هتف فى تهذيب ساخر :

ـ « فلينزل السادة الركاب .. »

أطلق الوسيم سبة .. ثم فتح باب العربة ووثب منها .. ولم ينس أن يساعد المرأتين على النزول .. بعد هذا نزل الواعظ والتاجر الذى لم يفهم بعد ما يحدث هاهنا .. لابد أن كل هذا كابوس ..

وقفت (عبير) ترمق قطاع الطرق هؤلاء ..

كان قائدهم ملتحيًا قذر الثياب .. يلوك عودًا من القش وقد ثبت سلاحه على عنق الجواد .. سلاحًا عجيبًا هو مزيج من البندقية ذات الأربعة أفواه ، والمسدس ذى الساقية ..

أما زملاؤه الثلاثة فلم يكونوا أفضل حالاً .. تتبدى الوحشية فى عيونهم الزرقاء .. ولحاهم مشعثة غير حليقة .. وكان أحدهم يحمل مدفعًا صغير الحجم فوق السرج .. وقد أعد عود ثقاب لإشعال الفتيل لو اقتضاه الأمر ..

نزع القائد قبعته فى تهذيب .. وقال :

ـ « أرجو أن تسامحنى السيدتان على ما فى مسلكى من فظاظة .. لكننا نعانى ـ أنا ورفاقى ـ حاجة مزمنة للحلى والذهب والساعات والدولارات .. وأعتقد أن معاناة الجميع ستنتهى بمجرد أن تفرغوا جيوبكم ، وتعطونا هذا الصندوق من فوق العربة .. »

فى هلع صاح التاجر وقد احمرّ لغده كعرف ديك :

ـ « لا !.. إن كل ثروتى فى هذا الصندوق ! »

ـ « إنها أنباء طيبة .. وإننى لأكرر عرضى بحماس أكثر .. »

ـ « أنت لن تجرؤ .. »

ـ « أنا لن أجرؤ ؟ ما رأيك يا (بيلى القذر) ؟ »



وأشار إشارة ذات معنى إلى رجاله ، فصدرت قعقعة من الأسلحة تعلن استعدادها ..

الفجر (بيلى القذر) ـ وهو يستحق هذا الاسم حقًا ـ يضحك كاشفا عن أسنان نخرة متسوسة ، ومن الغريب لـ (عبير) أن بقايا السيجار الذى كان فى فمه لم تسقط برغم أنه فتح فاه بالكامل ، ومعه ضحك الاثنان الآخران حتى أدمعت عيونهما ..

وهنا قال القائد :

ـ « هلموا يا شباب .. ولننه هذا الهراء .. »

فى حماس راح الركاب ـ بالطبع ما عدا (عبير) ـ ينزعون كل شىء ثمين يلبسونه أو فى جيوبهم .. وكان أكثرهم حماسة هو الفتى الوسيم (جيف) .. ، وترجل أحد اللصوص ؛ ليجمع كل شىء فى منديل قذر .. ثم تسلق جانب العربة ؛ ليأخذ الصندوق ..

فما إن وضعه على سرج جواده وسط دموع التاجر ؛ حتى قال القائد فى تهذيب مفتعل :

ـ « والآن يا سادة .. اغفروا لنا وقاحتنا .. فنحن مضطرون لقتلكم ! »

ـ « لكنك نلت ما تريد .. »

ـ « إن (هارى السفاح) لا يترك شهودًا .. »

وأشار إشارة ذات معنى إلى رجاله ، فصدرت قعقعة من الأسلحة تعلن استعدادها .. وحك حامل المدفع عود

الثقاب في السرج فاشتعل .. ولم ينس أن يشعل سيجاره منه .. ثم راح يرمق الركاب المذعورين فى استمتاع ..

ـ « اتلوا صلواتكم الأخيرة .. »

هنا كان الفتى الوسيم قد بلغ نهاية تحكمه فى أعصابه ..

وأدركت (عبير) أن قطرات الماء التى تبلل سرواله لم تأت من المطر حتمًا .. ورأته يصيح فى هستريا :

ـ « يا .. يا سيد (هارى) .. نحن لم .. نحن لم .. لا تقتلونا .. إن .. إن هذه الفتاة .. » ـ وبفظاظة جذب (عبير) المذهولة من ذراعها ..

ـ « .. هذه الفتاة هى السبب .. يمكنكم أن تقتـ .. تقتلوها فقط !..

فى غباء تساءل القائد :

ـ « السبب فى ماذا ؟ »

ـ « لـ .. لا أد .. أدرى .. ظننتكم تريدون ضحـ .. ضحية ما .. »

نظرت (عبير) إليه فى اشمئزاز .. الخنزير !.. كلهم يتصرفون بنفس الكيفية .. يكونون عشاقًا لا يشق لهم غبار .. وعند بادرة الخطر الأولى يضحون بالحبيبة عند أول لحظة .. وتذكرت مقطعًا من الشعر العامى

الساخر لشاعر مجهول يقول : (يموت حبيبى ولا استهواش) ! قد يبدو غريبًا ومضحكا .. لكنه حقيقى .

قال القائد فى سأم ، وقد أثار هذا العرض الأخير قنوطه :

ـ « هيا يا شباب .. انتهوا سريعًا .. »

وهنا صاح الواعظ رافعًا يده :

ـ « لحظة يا أخى .. أنت لن تقبل أن تقتلنا قبل أن نصلى من أجل خلاص أرواحنا .. »

ـ « ليكن أيها الأب .. ومن يدرى ؟ لربما سألت الله أن يغفر لنا حين تلقاه فى العالم الآخر .. »

اتجه الواعظ فى تؤدة ليواجه الركاب ، وأخرج الكتاب المقدس .. ورسم بيده علامة البركة فى الهواء .. وقال بصوت هادئ وقور :

ـ « توبوا يا أبنائى .. فأنتم ستلقون خالقكم بعد ثوان .. »

لا شىء سوى بكاء العانس .. واصطكاك أسنان الفتى .. وولولة التاجر على ماله .. ولهاث (عبير) المنفعل ..

ـ « .. لهذا تذكروا أن الرب دعانا لأن ... »

وفى الثانية التالية ، لم تر (عبير) سوى رجلين من اللصوص يصرخان ويسقطان من فوق صهوتى جواديهما .. ، وعندئذ عرفت أن الواعظ كان يخفى مسدسًا فى كتابه .. وأنه قد حفر الصفحات ؛ ليجعل منها صندوقًا يداريه فيه ..

عرفت كذلك أن عليها أن تنحنى وتتمرغ فى الرمال .. تسمع صوت الصراخ .. وصوت الطلقات .. ، وحين رفعت عينيها رأت الواعظ ممرغًا فى الرمال والدماء .. ورأت قائد اللصوص يطلق الرصاص كوحش مسعور فى كل اتجاه ، ومعه حامل المدفع الذى أشعل عود ثقاب آخر .. لقد مات اثنان من اللصوص إذن ...

ورأت العانس تزحف على ركبتيها ، والتاجر يحتمى بالعربة ، وشعرت أن هناك من يجذبها إليه بقوة .. فنظرت للوراء لتجد الوسيم يرقد وراءها متخذًا جسدها كدرع .. !

ـ « يا لك من خنزير !.. ألن تكف عن هذا ؟! »

ثم رأت حوافر الحصان تقترب .. وتقترب ..

رفعت رأسها ؛ لترى منظورًا من أسفل لزعيم اللصوص فوق صهوة جواده .. كان يرمقها من عل

وقد تألقت الشمس وراء ظهره .. ورأته يصوب مدفعه تجاهها ويقول :

ـ « اثنان بطلقة واحدة ؟ إن إغراء هذا لشديد .. ؟

وحين ضغط الزناد ..

كان آخر ما تمنته (عبير) أن يكفى هذا لإعادتها لعالمنا ..

وتمنت أن يكون الموت هينًا فى (فانتازيا) ...

....

* * *

٥ - (هيل تاون) نفسها ..

كما يحدث دائمًا لم تنطلق الرصاصة من السلاح المصوب نحوها ، بل جاءت من الوراء .. لتصطدم برأس قائد اللصوص ..ويتناثر الدم وشظايا المخ فى كل صوب ..

والطلقة الثانية اصطدمت برأس حامل المدفع ، الذى توقف هنيهة وعود الثقاب ما زال بين أنامله .. قال شيئًا ما عن النحس الذى يطارده .. ثم هوى كالصخرة من فوق صهوة جواده ..

هتف التاجر مشيرًا إلى الأفق :

- « انظروا ! »

إذ - فى الأفق - يقف ذلك الفارس راكبًا جواده .. على رأسه قبعة ، وأطراف عباءته تتطاير فى الهواء ..

كان يعيد حشو سلاحه الذى يتصاعد الدخان من فوهته ..

ثم جذب لجام جواده .. وانطلق مبتعدًا ..

هتفت العانس فى حيرة وهى تنفض الغبار عن ثوبها :

- « لقد أنقذنا .. ولكن من هو ؟.. هل الفارس المقنع ؟ »

قال التاجر وهو يضع كفه على عينيه ليتقى الشمس :

- « كلا .. الفارس المقنع لابد أن يصيح فى حصانه ، قائلاً : فلنبتعد يا (سيلفر) ! ، أما هذا فلم يقل شيئًا .. »

لكن (عبير) كانت تعرف الإجابة ..

إخوان الدم ..

واحد منهم قتل الدب .. وقتل اللصين ..

واحد منهم يلعب دور ملاكها الحارس .. فمن هو ؟ ولماذا ؟..

* * *

(هيل تاون) أخيرًا ..

برغم كونه وقت الغروب ؛ يمكننا يا رفاق أن نتأمل معالم هذه المدينة .. مجرد واحدة من عشرات المدن المماثلة فى الغرب الأمريكى .. ذات الطرقات الترابية .. دائمًا هناك فندق وحانة وحانوتى ومكتب (الشريف) ، ومصرف وحداد لتركيب حدوات الخيل ..

ثمة راعى بقر يجلس فى وضع غير مريح على

مربط الجياد أمام الحانة ، وقد أسدل قبعته على وجهه وراح يعزف لحنًا ما على جيتار عتيق ..

ثمة متسول ضرير .. وبعض عربات تجرها الخيول .. وبعض المتأنقين ذوى القبعات العالية يمشون مع نساء ذوات قبعات أكثر علوًا ..

ومن حين لآخر تخرج طلقة رصاص من الحانة ، أو يصطدم أحدهم ببابها الدوّار ليُقذف إلى الخارج ، ويسقط فى حوض سقاء الخيل ..

الخلاصة أنها بلدة عادية جدًا لا يميزها شىء ..

* * *

كانت (عبير) تفكر فى هذا كله ..

حين راحت العربة تخترق شوارع المدينة الترابية ، وكان الحوذى ثرثارًا بما يكفى لدرجة أنه لم ينتظر توقف العربة ..

بل راح يولول حاكيًا ما حدث للجميع ..

وعند مكتب (الشريف) توقف أخيرًا .. جذب أعنة الجياد وراح يولول من جديد ..

وتجمع الرجال .. فتحوا باب العربة ؛ لينزلوا جثة الواعظ الذى احترمه الموت ـ بالمعنى الحرفى للكلمة ـ ومددوها على الأرض ..

ورأت (عبير) المأمور يخرج من مكتبه فى تؤدة ، وقد دسّ إبهاميه فى نطاقه ، وراح يلوك لفافة تبغ بين أسنانه ..

كان بدينًا يوحى مظهره بالاسترخاء .. ، وقد ثبت نجمة المأمور الشهيرة باستهتار على صدره .. وإن نزع قبعته على سبيل احترام الموت ..

ركل الجثة بطرف حذائه .. وهتف :

ـ « هذا (وايلد بوى هيكوك) .. القاتل المحترف وأخطر رماة (فيرجينيا) .. إن عدد الوعاظ المزيفين فى هذا الغرب يفوق عدد الخطاة الذين يعظونهم .. »

ـ وبصق طرف لفافة التبغ .. وأردف :

ـ لقد كان قطاع الطرق محظوظين حقًا .. فلا أحد يظهر مسدسًا فى حضرة (وايلد بوى) ويظل حيًا .. »

ـ « لكنهم ماتوا .. »

ـ « الموت بأى سبب غير (وايلد بوى) يكون رحيمًا .. »

قال التاجر وهو يجفف العرق على جبينه ، وأسفل عنقه :

ـ « ليس هذا كل شىء .. لقد هاجم (الآباش) هذه السيدة وقتلوا زوجها .. كان هذا قبل أن تركب معنا ..»

أغمض المأمور عينًا وفتح عينًا .. وتأمل (عبير) فى اهتمام وهو يلوك لفافة التبغ .. حتى بدا لها كبقرة عجوز ترعى ..

وغمغم فى لا مبالاة :

ـ « (آباش) ؟.. هووووم !.. غريب !.. لا يوجد (آباش) هنا »

صاحت (عبير) فى حماس :

ـ « بل (آباش) .. لقد سلخوا رأس زوجى .. »

ـ « لابد أنهم (سيوكس) .. (الآباش) لا يسلخون الرءوس يا سيدتى ..

وعلى كل حال لا أظنك خبيرة بـ (موديلات) هؤلاء الهنود .. إن الخلط بين أنواعهم لهين .. كلهم يقذفون السهام ويقتفون الأثر ويرقصون بالرماح حول النار .. »

شعرت (عبير) بالحنق .. إنها غلطة (ذو الدمامل) الذى حاول أن يسبك التمثيلية بسلخ رأسى الرجلين .. لكنه أفسدها ..

والآن يتجه إصبع الاتهام نحو (السيوكس) ..

رجل يرتدى ثيابًا زرقاء ، وعلى رأسه قبعة رسم فوقها سيفان متقاطعان .. ووجهه يزدان بلحية بيضاء مهيبة .. كل ما فيه يوحى بأنه عسكرى .. وأنه يقود .

دنا منهم .. فأفسح له الرجال مكانًا .. وقال أحدهم :

ـ « إنه الجنرال (سكوت) .. قد جاء من الحصن .

وقف الجنرال يتأمل الموقف .. ثم هتف بصوت مهيب مجلجل :

ـ « من كان موجودًا حين هجم الهنود ؟ »

ـ « هذه .. السيدة .. »

دنا منها .. وبعينين نافذتين تأملها .. وتساءل :

ـ « هل رأيت ما حدث يا بنيتى ؟ »

ـ « نـ .. نعم .... »

ـ « أنت واثقة من أنهم كانوا (سيوكس) ؟ »

ـ « أ .. أحسبهم كانوا .... (آباش) .. »

ـ « لا يوجد (آباش) هنا .. إذن هم (سيوكس) وقد خرقوا الهدنة »

صاح أحد الرجال فى هستيريا :

ـ « ويل لهم يا (جنرال) .. إن الهندى الطيب هو الذى مات ! »

تزايدت صيحات الحماس الدموى ، فقال المأمور فى حنق:

ـ « يا (جنرال) .. إن مسئوليتك هى عن الهنود .. أما أنا فأحقق فى أمر اللصوص .. إن لكل منا مجال تخصصه .. فدعنا لا نفسد عمل بعضنا .. »

قال (الجنرال) وهو ينقل نظراته النافذة إليه :

ـ « أنا لا أطيق المدنيين كما تعلم .. »

ـ « وأنا لا أتحمل العسكريين .. »

ـ « إذن ستكون لى لقاءات عدة مع هذه السيدة .. ولسوف أجرد حملة تأديبية للقصاص غدًا .. »

وانصرف (الجنرال) فى شىء من عصبية ..

فأشار المأمور لـ (عبير) إلى الفندق ، قائلاً لها : إنه مريح ولا بأس به .. وإنه سيعود إليها فى الصباح ليرى ما تملكه من معلومات عن الحادثين ..

ـ « إن (هيل تاون) مدينة قذرة .. لكنها أنظف من سواها .. »

وعلى باب الفندق حيتها العانس فى فتور .. فهى ذاهبة ؛ لتقيم لدى شقيقتها .. ، وعرفت (عبير) أن التاجر والوسيم سيكونان معها فى الفندق ..

إن مهمتها محددة .. ولكن كيف تبدأ ؟

هل تذهب إلى (الجنرال) لتسأله عن نواياه بهذه البساطة ؟

إن عمل الجواسيس يبدو سهلاً فى السينما .. لكنه معقد فى .. فى الحلم إلى درجة لا توصف ...

* * *

قرعات على باب الحجرة ..

ذهبت تفتحه فى حذر حاملة الشمعة ؛ لتجد الفتى الوسيم واقفًا وقد نزع قبعته ، وراح يبتسم فى أدب ..

ـ « مساء الخير يا مسز (ستون) .. »

ـ « مساء الخير .. »

ابتلع ريقه .. وغمغم :

ـ « كنت .. أتساءل عما إذا كان من الممكن أن تقبلى دعوتى إلى .. أ .. لنقل سهرة فى المطعم .. »

ـ « لا .. »

قالتها فى صرامة ، ودفعت الباب لتغلقه ، لكنها وجدت حذاءه محشورًا فى فتحة الباب .. وعلى وجهه اللزج اللحوح ارتسمت بسمة مقيتة :

ـ « لا تدرين ما سيفوتك .. »

ـ « ليس عشاء مع الإسكندر المقدونى على كل حال .. »

ثم فكرت .. لمَ لا ؟..

إن هذا سيمنحها فرصة الاندماج مع القوم فى هذه المدينة ، ولسوف تعرف من كلامهم الكثير ..

ولكن كيف تخرج بهذه الثياب ؟.. ثياب المرأة التى



قالتها فى صرامة ، ودفعت الباب لتغلقه ، لكنها وجدت حذاءه محشورًا فى فتحة الباب ..

سلخ (السيوكس) رأسها منذ عام ، ثم زادتها أحداث اليوم سوءًا ..

وكأنما قرأ الفتى ما يجول بذهنها .. فانحنى على الأرض والتقط كيسًا ورقيًا به شيء ما .. وقدمه لها وابتسم ..

نظرت داخل الكيس فوجدت ثوبًا جديدًا .. يبدو أنه ..

ـ « .. من المتجر .. ابتعته لك الآن .. أعرف أنك فقدت حقيبتك إثر غارة الهنود .. »

ـ « لكنى لن ... »

ـ « أرجوك ... »

لم تدر ما تقول .. فهى لا ترغب فى قبول هدايا من هذا النذل .. وهى تنفر دومًا من الرجال الشجعان وقت السلام .. الجبناء إبان الخطر .. ، ثم قالت لنفسها : إن الأمر كله حلم .. حتى المتجر ذاته هو من نسيج أحلامها .. فأى ضير هناك من أن تفعل فى الحلم شيئًا تأباه فى الواقع ؟

تناولت الكيس شاكرة ، وهمت بغلق الباب فى وجهه حين سمعته يقول فى لطف :

ـ « لم يكلفنى سوى عشرين دولارًا وعشرة سنتات .. يمكنك أن تدفعيها لى فيما بعد ! »

أغلقت الباب فى غل .. إن حقارته وخسته لاتقفان
عند حد .. لكن هذا أفضل .. إن معها دولارات
(ذو الدمامل) .. وليعلم هذا الوغد - الوسيم - أنه لن
يستطيع شراءها بشيء دفعت ثمنه بالكامل ..

وحين فتحت الباب - فى ذروة أناقتها الأنثوية - كان
أول ما فعلته هو أن دست النقود فى جيبه ..

زاده هذا سعادة .. وانحنى ليطبع على أناملها قبلة
لزجة زادها شاربه خشونة .. ذكرتها بملمس أقدام
دودة القز ذوات الممصات ..

كانت تربى هذه الديدان كطقس من طقوس الربيع ..

مشيا فى الشارع بضع خطوات ..

ثم رأته يفتح باب الحانة ويدخل معها ..

كان الجو غير راق للأسف ..

الدخان يعبق الجو كأنما توقف هناك إلى يوم الدين ..
ونغمات نشاز تتصاعد من بيانو عتيق يجلس إليه
عازف زنجى مخمور ..

الرجال جالسون إلى موائدهم يلعبون الورق ويحتسون
الشراب ، ومجموعة من صيادى الفراء يلعبون
الـ (برادى فير) .. لعبة الأذرع القوية ، وكان هناك
مكسيكيون يرتدون (البانشو) - الحرملة المكسيكية

الشهيرة - و (السومبريرو) - القبعة المكسيكية الأكثر
شهرة - يحتسون (التاكيلا) - المشروب المكسيكى
ساحق الشهرة ..

تساءلت (عبير) فى حيرة :

- « كيف يجتمع مكسيكيون - وهم موجودون فى
الجنوب - مع صيادى فراء - وهم موجودون فى
الشمال قرب (كندا) - فى مكان واحد ؟ »

قال (جيف) بلا مبالاة وهو يشق الزحام :

- « هذه (فانتازيا) كما تعلمين .. وفى (فانتازيا)
يفسح علم الجغرافيا مكانًا للخيال .. »

- « كما أفسح علم الفلك مكانا فى (جالاكتيكا) ..
وأفسح علم الفيزياء مكانا فى (٠٠٧) .. »

- « تمامًا .. »

ضحكة خليعة من إحدى فتيات الحانة ، ولكمة فى فك
أحدهم .. ورصاصة تنطلق من مكان ما إلى مكان ما ..

جلس (جيف) مع (عبير) إلى مائدة .. ونادى
الساقى وهو يبتسم لها محاولاً أن يفتنها ..

وهنا شعرت (عبير) أن الظلام قد حل ..

رفعت رأسها ؛ لتجد عملاقًا يشبه الجبل حجمًا
وموضوعًا ..

عملاقًا أشعث نامى اللحية قد فتح أزرار قميصه ؛ حتى البطن ، كاشفًا عن صدر مشعر كغوريللا .. ، وكان هناك جرح قديم فى خده .. وخنجر عملاق يتدلى من نطاقه .

كان يقول شيئًا ما :

ـ « هيه يا أصفر ! نحن لا نخدم الآنسات هنا !(*)»

استشاط (جيف) غضبًا ووقف .. كان مستوى رأسه عند بطن العملاق بالضبط (هذا لأن العملاق كان منحنيًا) .

وصاح فى حنق :

ـ « إننى أطالبك أن تكون أكثر أدبًا يا ..... »

ـ « تطالب من ؟.. »

وانهالت لكمتان على وجه الوسيم فلم يعد كذلك .. لكمة ثالثة أطارته مترين إلى الوراء .. ثم لكمة رابعة جعلته يختفى من الحانة (وربما من العالم) إلى الأبد .

وأمام عينى (عبير) المذعورتين ؛ رأت العملاق يجلس إلى المائدة .. وينحنى ليقول لها فى حنان :

ـ « هيا يا فتاة ـ لقد حان الوقت كى يكون لك رجل حقيقى ..! »

* * *

(*) أصفر تعنى جبانًا بلغة الغرب ..

٦ ـ الفارس الوحيد ..

كانت (عبير) تعرف جيدًا مشاغبى الحانات هؤلاء .. لكنها لم تجد فكرة للهرب من هذا الوحش .. ، فلو نهضت لجذبها إليه .. ولو صرخت فلن يعبأ بها أحد .. ماذا تفعل ؟..

ومرّ أحد رواد الحانة جوار المائدة فصاح فى مرح :

ـ « هاى !.. يبدو أن (أجلى جو) قد وجد صديقًا »

ـ « اخرس ! »

قالها بنبرة حاسمة عميقة .. ، وعاد يبتسم لـ (عبير) .

يا له من مأزق .... !

* * *

انفتح باب الحانة الدوّار .. ورأت (عبير) راعى بقر يدخل منه .. كان يضع خرجًا على ظهره .. وثيابه فى أسوأ حال ..

لم تر وجهه لأن القبعة تميل ؛ لتغطى أكثره .. لكنها رأت أنه يحمل مسدسين فى نطاقه ، وكانا موضوعين بحيث يشير مقبضهما إلى الأمام لا الخلف ..

رأته يمشى بتؤدة نحو البار ..

يضع الخراج على المنضدة .. ويريح ساقيه ـ اللتين دفنهما فى حذاءين ذوى رقبة عالى الكعب ـ على مقعد خشبى مرتفع ..

جاءه الساقى البدين ذو الشارب الكثّ .. ، فقال له شيئًا ما دون أن ينظر إليه ..

سمعت الساقى يسأله فى فضول :

ـ « هل نفق جوادك يا راعى البقر ؟ »

هزّ الرجل رأسه أن نعم .. وتناول الكوب المكسو بالرغاوى من الساقى .. وأفرغه فى فيه مرة واحدة ..

قال الساقى وهو يجفف بعض الأكواب :

ـ « إن الغبار يسبب الظمأ .. ولابد أنك ابتلعت الكثير منه .. »

لم يردّ راعى البقر .. ومدّ يده يطلب المزيد ..

ثم ألقى قطعة عملة على المنضدة ..

هنا صرخت (عبير) لأن الوحش الذى يجلس أمامها ضربها على يدها ، ليجذب انتباهها إلى دعاباته .

رأت راعى البقر ينهض من مكانه فى تؤدة ، القبعة تغطى أكثر وجهه لأنه ينظر لقدميه طيلة الوقت ..

فى بطء يسير نحو مائدتها ..

يقف أمام العملاق الجالس .. ويقول بصوت منهك :

ـ « دعها تتصرف ! »

* * *

تحوّل وجه (أجلى جو) إلى لون الطماطم .. ومدّ يده إلى الخنجر العملاق فى خصره ، وهو يسبّ بعنف :

ـ « يا خيال المآتة .. ستندم على لعبك دور الرجل القوى ! »

لكنه توقّف ..

كان نصل المسدس البارد ينغرس فى لحم عنقه .. وأصدر الزناد صوت الـ (كليك) يوحى بأن المسدس وحش يحاول التملص من سيطرة من يمسك به ..

متى أخرج راعى البقر المسدس ؟ لم يره أحد يفعل ذلك .. كانت سرعته لا توصف ..

وبكلمات باردة قال لخصمه الذى فقد حماسه :

ـ « أرى أننا بدأنا نتفاهم .. والآن اغرب عن وجهى .. »

ـ « ستندم يا راعى البقر ! »

ـ « ربما .. ولكن ليس على طردى لك .. »

نهض العملاق متثاقلاً فلو أن النظرات تقتل لتحوّل راعى البقر إلى غبار تذروه الريح .. وببطء غادر المكان الذى ساده الصمت ..

وحتى صوت الأنفاس لم يعد هناك ..

وللمرة الأولى ترى (عبير) ملامح راعى البقر ..

كان – مرة أخرى – هو (شريف) ذاته !.. وإن بدا وجهه متعبًا صارمًا لم يبتسم قط فى حياته .. لحيته طويلة .. وشفتاه متشققتان .. وأظفاره مستطيلة سوداء ، لقد لوحت الشمس بشرته إلى حد الاحتراق .. واختلط الغبار بالعرق فى تجاعيده وعلى شعر حاجبيه .

لكنه ظل هو ..

لم يكلمها .. فقط أدار المسدس فى الهواء بحركة بهلوانية قصيرة ، فعاد السلاح إلى قرابه ..

وعاد إلى البار ؛ ليواصل احتساء مشروبه ..

– « مرحى ! »

دوى الصوت من مكان ما ..

ورأت (عبير) رجلاً متأنقًا – إلى حد الاشمئزاز – يرتدى بذلة كاملة ، وسلاسل ذهبية ثقيلة تتدلى من صدارها ؛ رأت هذا الرجل ينهض قاصدًا راعى البقر .. وفى مودة يربت على كتفه :

– « أنت شجاع يا راعى البقر .. قليلون هم من جرءوا على تحدى (أجلى جو) .. »

لم يرد الرجل .. وواصل تأمله فى صمت بليغ ..

– « تعال إلى مائدتنا .. نحن نلعب (البوكر) .. هل تعرفها ؟ »

لم يرد الرجل .. لكن صمته كان يملك الردود كلها .. فتارة يصمت بمعنى (نعم) .. وتارة بمعنى (لا) .. وتارة بمعنى (شكرًا) ..

هذه المرة كان صمته يقول : نعم ..

وفى ذات التؤدة نهض ماشيًا وراء الرجل ..

قاده هذا إلى مائدة انتثرت عليها أوراق اللعب ، وعليها يجلس ثلاثة رجال لا توحى نظراتهم بالراحة .. كانوا يتأملون القادم الجديد فى انتقاد ..

لكنه جذب مقعدًا وجلس ..

قال أحدهم وهو (يخلط) الأوراق :

– « نحن نلعب ومسدساتنا على المنضدة يا راعى البقر .. »

أخرج الرجل مسدسيه ووضعهما على المنضدة .. ثم أمسك بمجموعة أوراقه وبدأ اللعب ..

لن أحدثكم هنا عن تفاصيل ما حدث ؛ لأننى لا أعرف شيئًا عن لعبة (البوكر) .. و (عبير) كذلك لا تعرف .

لكننى أعرف أن الفتى راهن على مسدسيه ، مقابل واحد من جياد هؤلاء السادة المربوطة خارج الحانة ..

سأله المتأنق ذو البذلة :

ـ « هل تريد توزيع الورق ؟ » .

ـ « ناب ! » .

ـ « هل تريد مزيدًا منه ؟ » .

ـ « ياب ! » .

إنه يستخدم الـ (ياب) بمعنى (نعم) والـ (ناب) بمعنى (لا) كديدن رعاة البقر .. ومنذ أن استعمل (جارى كوبر) هاتين اللفظتين فى أفلامه غدا محتمًا على الفرسان الوحيدين أن يستعملوهما .. ، جميعهم بدءًا بـ (بافالوبيل) وانتهاء بـ (لاكى لوك) ..

دعونا نر الآن ما تم فى اللعبة ..

إن الفتى يخسر باستمرار .. ومجرى الحظ يمشى فى صالح المتأنق دون تردد ..

ابتسامة ثقة كريهة تترقرق على شفتى المتأنق .. بينما يواصل الكسب وابتسامة غامضة تتلاعب على شفتى الجالس جواره ..

راحت (عبير) تدور ببصرها فى أرجاء الحانة .. ثم أزمعت أن تغادر المكان قبل أن تتعرض لمضايقة أخرى .. فالمكان ـ حتمًا ـ لا يناسب الآنسات الرقيقات مثلها ..

نهضت لتتصرف .. حين سمعت صوت راعى البقر يقول فى اشمئزاز ضاغطًا على حروفه :

ـ « هذا هو كل شىء .. إن الحظ يكون رائعًا إذا تسلح بقليل من الغش ! » .

ومن كم المتأنق رأت (عبير) عددًا من أوراق اللعب تتساقط ..

كلها (آسات) ..

وفى اللحظة التالية رأت المتأنق يخرج من سوار قميصه مسدسًا دقيقًا جدًا بحجم صفارة تحكيم المباريات ، ورأته يصوبه نحو رأس راعى البقر ..

إن مسدسات المقامرين المحترفين هذه شديدة الفتك .. برغم كونها لا تحوى سوى رصاصة واحدة دائمًا .

ـ « أنت ذكى يا راعى البقر .. لكنه ذكاء لا يطيل العمر .. » .

فى اللحظة التالية ركل راعى البقر المذكور أعلاه المنضدة .. فانقلبت على الرجال الثلاثة .. ودوت طلقة فى الهواء ..

ثم وثب على الرجال الواقعين على الأرض .. وراح يوجه اللكمات يمينًا ويسارًا كما يحلو له ..

إن الركلات لا تستعمل في مشاجرات الغرب أبدًا ، ولكن طريقة القتال هي (اللكمات القوية في الفك) ..

وأخيرًا انتهى الحفل ، فنهض راعي البقر .. استرد مسدسيه وأعادهما إلى حزامه بحركة بهلوانية سريعة .. وأصلح من وضع قبعته ..

هنا وصل المأمور (ربما .. هو الـ (شريف) ، فأنا لا أعرف فارقًا بينهما في الواقع) ..

جاء يهزّ كرشه البدين ، ولفافة التبغ بين أسنانه كالعادة ..

وبنظرة خبيرة قيم الموقف .. ثم سأل :

– « من أنت يا راعي البقر ؟ »

رفع راعي البقر المذكور قبعته لأعلى قليلاً .. وغمغم :

– « يسمونني الجوّال ! »

بهتت (عبير) .. في كل مرة ترى فيها (شريف) يكون اسمه (الجوّال) .. ويكون مشعثًا متمردًا على كل شيء ..

إن في هذا تكرارًا لا يخلو من إملال ..

قال المأمور وهو يبصق طرف اللفافة :

– « أرى أنك أحدثت قدرًا لا بأس به من الشغب .. هل جئت إلى هذه المدينة لتبقى ؟ »



في اللحظة التالية ركل راعي البقر المذكور أعلاه المنضدة .. فانقلبت على الرجال الثلاثة ..

- « أظن ذلك ... »

- « إذن دعنى أصارحك بأننى لا أحب من هم على شاكلتك فى مدينتى ..

دعنى أسمع عن حادث آخر .. ولتجدن نفسك مطرودًا من البلدة مكسوًا بالريش والقطران ! »

- « ياب ! »

أدركت (عبير) أن المأمور متراخ .. يقبل شرور بلدته كما هى ولا يطيق أن يجىء من الخارج من يعكر صفو هذا الصفاء ..

إنه يقبل الفساد ما دام فسادًا صامتًا ..

ولا يطيق من يرغمه على اتخاذ ردّ فعل ما ..

نهضت لتنصرف لكن (الجوّال) ناداها ..

- « يا آنسة ! »

استدارت نحوه غير فاهمة .. فدنا منها .. وقال فى هدوء :

- « أنا خارج .. دعينى أوصلك إلى حيث تقطنين »

- « أ ..... »

وخرجت معه من الحانة على حين عادت نغمات المعزف تتردد .. وضحكات الفتيات .. وطلقات الرصاص ..

وفى الخارج كان الظلام دامسًا ..

سألته وهى تمشى جواره ملاحقة خطواته :

- « هل تنوى البقاء هنا طويلاً ؟ »

- « ياب ! »

- « هل أنت هارب من العدالة ؟ »

- « ناب ! »

- « ألا تقول شيئًا سوى (ياب) و (ناب) ؟ »

- « ناب ! »

إنه لا يحب الثرثرة ــ فكرت (عبير) ــ وإن كان لا يجيد قواعد اللغة .. ، المفروض أن تكون عنده لفظة مماثلة لـ (بلى) يرد بها على السؤال المنفى بدلاً من (ناب) بمعنى (لا) ..

كانت الآن عند باب الفندق .. بالطبع لن تدعوه إلى الدخول ..

ابتسمت له فى حرج .. وهنا لاحظت أنه يحدق فى عنقها بإصرار واهتمام شديدين .. أتراه يفكر فى خنقها ؟ لن يدهشها ذلك ..

بعد ثانية أدركت أنه يرمق القلادة التى تلبسها ..

قال لها وهو يرفع قبعته عن عينيه :

- « قلادة جميلة .. »

- « شد .. شكرًا »
- « لا يملكها سوى ابن زعيم (السيوكس) ! »
- « .... ! »
- « ولو كنت مكانك لحجبتها بعيدًا عن العيون ! »

....

* * *

٧ - الخروج من (هيل تاون) ..

كانت الضوضاء تصمّ الآذان تحت نافذتها بالفندق فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ..

نهضت لترى ما هنالك ، فوجدت حركة غير عادية فى الشارع .. ورأت حشدًا أكثر من اللازم للون الأزرق .

كان هناك عجوز رث الثياب ممددًا على الأرض ، يفسر الموقف لرجل يقف إلى جواره :

- « إنهم (هك !) جنود الحامية (هك !) ذاهبون لتدمير معسكر الـ (هك !) سيوكس ! »

- « حسنًا يفعلون ! »

تراجعت (عبير) إلى الداخل ..

يالها من مصيبة ! لقد جلبت الوبال على (السيوكس) الذين هم قومها ، وأمها بينهم .. ماذا تقول وماذا تفعل ؟ لابد من مخرج ما ..

هرعت إلى المرآة فارتدت الشعر المستعار ، وأعادت طلاء بشرتها بالدهان الشاحب إياه .. ثم ارتدت ثيابها .. وراحت تجول فى الحجرة يمينًا ويسارًا .. حتمًا لابد من إبلاغ قومها .. ولكن كيف تفعل ذلك ؟ كيف تصل إليهم ؟

لا مفر من أن تسرق حصانًا وتغادر البلدة الآن حالاً .

نزلت فى الدرج ببطء .. وهنا سمعت من يناديها :

- « سيدة (ستون) !.. ماذا تعملين ؟ ..

أجفلت ونظرت للـوراء .. فوجدت الفتـى الوسـيم (جيف) واقفًا بجلباب النوم جوار باب غرفته ، وقد بدا عليه عدم الفهم ..

يا له من وغد !.. المفترض أن يعتزل الوجود تمامًا بعد العار الذى حلّ به ليلة أمس ..

قالت له فى حنق :

- « شعرت بحاجة لاستنشاق الهواء .. »

- « فى هذه الساعة ؟ »

- « هى رئتى لا رئتك .. »

وواصلت الهبوط فى الدرج ؛ حتى غادرت الفنـدق .. وابتعدت بضع خطوات .. حيث كان الجواد الذى تريده واقفًا قرب الباب يعب الماء عبًا من حوض السقاء ..

ولم يكن امتطاؤه عسيرًا على من هى ذات أصل هندى .. صوت الحوافر يمزق هدوء الفجر .. ولا أحد جوار الفندق ليرى ما يحدث .. لأن الزحام كله كان ناحية المصرف الآن ..

ولكن .. فى أى اتجاه تمضى ؟

المفترض أن الهنود يجيدون هذه الأمور .. وإنهم ليشمون الأثر شمًا .. لكنها ليست هندية تمامًا .. أو - لمزيد من الدقة - هندية مظهرًا مصرية عقلاً ووجدانًا .

الصحراء الناعسة من أثر النوم تتمطى فى كسل أمامها ..

والجواد يلهث ..

صوت الحوافر الرتيب يدوى دون انقطاع ..

والنعاس يتسلل إلى عينيها .. لكنها تقاوم ..

* * *

من نومه صحا الجوّال ..

كانت عظامه كلها تؤلمه ، لأنه لم يعتد النوم على الأسرة قط .. إن هذه الاختراعات اللعينة تتبعج تحت جسدك ، ولا تلقى عظامك بتلك اليد الصارمة الحانية التى تلقاك بها الأرض .. لهذا - يمكننا فهم هذا - كان جسده كتلة من الألم المتحرك .. لكنه كان بحاجة للنهوض ..

لماذا ؟.. لأنه سمع صوت الحوافر الراكضة ، وأى راعى بقر يعرف معنى سماع حوافر فى الفجر ..

إنها الفتاة حتمًا ..

كيف عرف ؟.. لا أدرى بالضبط .. لكن هذا النوع من رعاة البقر يعرف هذه الأمور بسهولة ..

نهض إلى المرآة .. وأخرج الموسى ؛ ليحلق ذقنه بالطريقة الجافة كما اعتاد .. وهى عملية غير مثمرة لأن ذقنه تظل طويلة كما كانت ..

ثم يرتدى قميصه .. وبالطبع كل رعاة البقر الوحيدين ينامون بالسروال والحذاء .. والمسدسان فى نطاقهما المعلق عند رأس الفراش ..

ثم إنه يثب من النافذة بحركة رشيقة تقذف به فوق ظهر جواده نصف النائم .. إنها لـ ...

طش ش ش ش !.. لا يوجد جواد !.. فقط مياه السقاء .. هناك من سرق الجواد ولسوف يدفع الثمن ..

وسكير يمر مترنحًا بقربه يقول له :

- « (هك !) يا راعى البقر (هك !) إن هذا ليس حوض استحمام ! »

فيخرج من الحوض محنقًا .. لو كانت هذه قصة مصورة لرسم الرسام سحابة من الدخان الأسود تخرج من رأسه .. لكن الجوال اكتفى بأن يشعل لفافة تبغ يلوكها تحت ضروسه .. ويزمجر ..

إذن الفتاة قد فرت ..

وبالتأكيد فرت راكبة حصانه ..

يا له من حصان خائن !.. صحيح أنه صار صاحبه منذ ست ساعات فقط بعد ما ربح لعبة (البوكر) لانسحاب خصمه .. لكن هذا لا يعنى أن يفرّ مع أول لصة حسناء تمتطيه ..

إن الخيول لم تعد كعهده بها ..

* * *

فى هذه الأثناء تمرّ لحظات سوداء بـ (عبير) ..

فالحصان لا يطيعها بتاتًا .. بل هو مصرّ على السير بطريقته الخاصة فى مسار محدد له مسبقًا .. كأنما ينفذ برنامجًا متفقًا عليه من قبل ..

الحصان الذى ينحرف يمينًا .. ثم يسارًا .. ثم يمينًا .. ويعبر جدولين .. ويدور حول جبل .. ؛ هذا الحصان يعرف ما يفعله بالتأكيد ولا يركض اعتباطًا ..

شرعت تسبّه وتلعنه لكن اللعين ظل مصرًا ..

أخيرًا ترى (عبير) مجموعة من الكهوف .. وترى الحصان يتمهل فى ركضه .. ثم يمشى بتؤدة داخلاً أحدها ..

كان الظلام دامسًا بالداخل .. لكن الوغد يعرف إلى أين هو ذاهب ..

ثمة تيار هواء بارد آت من مكان ما .. واقشعرت إذ شعرت به يلمس وجهها ..

خُيّل لها أنها ترى ضوءًا خافتًا يدنو من طرف المكان من وراء الصخور فكتمت صرخة ، وجذبت لجام الجواد لتوقفه عن التقدم .. فى اللحظة التالية رأت شابًا يحمل كشافًا فى يده وفأسًا يدنو منها ويتأملها ذاهلاً .. ومن وراء كتفه رأت عجوزًا أشيب وعملاقًا أشقر .. كلهم يتأملونها ذاهلين :

- « من أنت ؟ »
- « ربما كان علىّ أن أسأل ذات السؤال »
- « نحن أبطال (جول فيرن) نقوم برحلة إلى مركز الأرض .. ومن المفترض أن تكون هذه الكهوف خالية »
- « وأنا (عبير) أقوم بمغامرة من مغامرات الغرب »

صاح العجوز فى نفاد صبر :

- « هيا يا (أكسل) .. دعك من هذه المتطفلة ولنواصل رحلتنا ! »

قال (أكسل) :

- « إن إدارة (فانتازيا) غير دقيقة فى مواعيدها .. كان المفترض أن يرتبوا لها وقتًا آخر لمغامرتها هذه .. هيا بنا يا (هانز) »

وأمام عينيها الذاهلتين اختفوا فى الظلام ..!

من جديد عاد الظلام يسود المكان .. وعاد الجواد يتقدم ببطء عبر الممرات الوعرة .. فى النهاية توقف فى جيب كهفى صغير ..

وعلى الجدار تبينت (عبير) وجود مشعل .. وجواره عدد من أعواد الثقاب فتناولت عودًا وحكته فى السرج - كما تراهم يفعلون - ثم أشعلت المشعل ..

وراحت تستكشف المكان على الضوء الذهبى المتراقص ..

وطاويط !.. تبًا لهذه الكائنات المريعة المشئومة تتدلى من جدار الكهف العلوى .. وعيونها العمياء تحدق فى القادم الجديد ..

ثمة خيط ماء يتسرب من مكان ما فوق رأسها ..

ثم .. الحصان يتوقف كأنما أنهى الحدّ المسموح به له كى يتقدم .. تنزل (عبير) من فوقه وبرفق تربت على منخره وتواصل السير ؛ لترى ما وراء هذه الفجوة الصخرية ..

ويتجمد الدم فى عروقها ...

إنها قاعة .. كأنها قاعة اجتماعات تتوسطها مائدة هائلة الحجم عليها (شمعدانات) عملاقة .. وحولها مقاعد.



إنها قاعة .. كأنها قاعة اجتماعات تتوسطها مائدة هائلة الحجم عليها (شمعدانات) عملاقة .. وحولها مقاعد ..

اثنا عشر مقعدًا على وجه التحديد ...

أى مكان هذا ؟..

وفجأة سمعت صوت أقدام .. فهرعت تتوارى فى الفسحة خارج الكهف تحاول أن ترى ولا تُرى .. وبيد مرتجفة ربتت على منخر الحصان تتوسل إليه أن يلزم الصمت .. وأطفأت المشعل ..

الضوء يتزايد فى القاعة مما يشى بأن الشمعدانات تشتعل .. ثم ترى أشباحًا تتحرك بالداخل ..

وبصعوبة كتمت صرخة تريد أن تغادر حلقها .. إنها أشباح حقيقية لا مجازية .. كل منها يضع عباءة سوداء على كتفيه .. ويحجب وجهه بلثام أسود .. وعلى رأسه قبعة سوداء ..

ورأت عددهم يتزايد حتى بلغ أحد عشر شبحًا .. اتخذ كل منهم مقعدًا على المائدة فى حين جلس واحد فى الصدارة ، ليوحى بالزعامة .. وقال بصوت رخيم عميق :

- « أين (هيل تاون) ؟ »

تبادل الرجال النظرات .. ثم عادوا للصمت ..

- « ألم تصله رسالتى ؟ »

- « بلى .. لقد وصلت إلى (أوكلاهوما) وإلى (شيكاغو) .. المفترض أنها وصلته .. »

قالها أحدهم ، وعاد إلى الصمت ..

ـ « إذن سنبدأ الاجتماع دون انتظار .. لكن علىّ أن أعرف شخصياتكم أولاً .. »

ثم نظر تجاه أولهم وسأله :

ـ « كم ريشة فى جسد السنونو ؟ »

ـ ثلاثمائة .. »

نظر للثانى متسائلاً :

ـ كم شعرة فى لحية العم (سام) ؟ »

ـ « ألف .. »

وهكذا .. وأدركت (عبير) أن هذه الإجابات يحفظها كل من الرجال على انفراد فى نهاية الاجتماع ليجيب عنها فى الاجتماع التالى ، وهى طريقة لا بأس بها للتأكد من أنه نفس الرجل الذى حضر الاجتماعين دون كشف وجهه ..

ومن البديهى أن الأسئلة تتغير فى كل مرة ..

بعد هذا هتف الزعيم :

ـ « ماذا تبتغون ؟ »

ـ « الدم ! »

ـ « وماذا جاء بكم ؟ »

ـ « الدم ! »

ـ « كم تدفعون لأجله ؟ »

ـ « أرواحنا ! »

إلى آخر هذا الديالوج الممل الذى يذكره من قرءوا الفصل الثانى ..

وأدركت (عبير) أن هذا هو ملتقى « إخوان الدم » الذين اصطدمت بهم عدة مرات .. وراحت تستنتج العلاقات التالية :

الحصان قادها لهنا .. إذن هو حصان عضو (هيل تاون) .. الحصان يخص الجوّال ، لكنه لم يكن كذلك ليلة أمس .. كان يخص المقامر المحترف المتأنق .. إذن هو (هيل تاون) ذاته ..

وإذن المقامر مجرد شخصية وهمية يلعبها .. أما الحقيقة فهى أنه ـ مثل (زورو) ـ يتحول ليلاً إلى عضو فى هذه الجمعية السرية ..

جمعية (إخوان الدم) ..

أما لماذا تخلى عن حصانه بسهولة برغم كون الحصان يعرف أكثر مما يجب ؛ فلأن حالته بعد مشادة الحانة لم تعد تسمح له بالمقاومة ..

إذن لا خوف هنالك .. لقد أنقذها « إخوان الدم » من الموت مرارًا .. إنهم أخيار برغم مظهرهم المرعب ، وغموضهم المخيف ..

وها هى ذى تسمع هذه المحادثة :

- « ما هى إنجازات الأسبوع يا سادة ؟ »

قال أحدهم فى حماس :

- « لقد أحرقت ثلاثة زنوج أحياء ! »

- « مرحى !.. فلنحيه ! »

راح الرجال يقرعون المائدة بكعوب مسدساتهم فى تناغم إيقاعي لا بأس به أبدا .. كلاك .. كلاك ! .

ثم سأل الزعيم ثانيهم عن إنجازاته :

- « لقد سلخت فروة رأس امرأة هندية »

- « مرحى ! .. كلاك .. كلاك ! »

ثم أشار إلى آخر :

- « وأنت يا (تكساس) ؟ »

- « لقد أرغمت رجلاً صينيًا على غسل حصانى بلسانه ! »

كلاك .. كلاك ! ..

- « وأنت يا (أوهايو) ؟ »

- « حولت عيون أسرة زنجية إلى كرات تنس ولعبت بها ! »

هنا كان شعر (عبير) قد تصلب على جذوره ، كما

يحدث فى أفلام الرسوم المتحركة ، وراحت أسنانها تصطك ..

من هؤلاء ؟ إنهم أشرّ وأحط سفاحين عرفتهم فى حياتها ..

إذن كيف أنقذوها ؟ ولماذا ؟ وما هو هدفهم من هذه الجمعية المريعة ؟

أسئلة كثيرة احتشدت فى ذهنها ، ولم تجد لها إجابة .

ومن المؤكد أنها لن تجد ، لأن الحصان مطّ عنقه — حيث وقف جوارها فى الظلام — وأطلق صهيلاً طويلاً ..!

.... !

* * *

٨ - من أنت ؟

(وقال زعيم اللصوص لرجاله) :

- « من الذى عطس يا رجال ؟ »
- « ليس أنا .. »
- « ولا أنا .. »
- « إذن .. هناك غريب بيننا ! »

* * *

حاولت جاهدة أن تخرس الحصان .. وأتاها صوت الزعيم من داخل قاعة الاجتماعات السوداء هذه يقول :

- « أسمعتم ؟ »
- « سمعنا ! »
- « هلموا .. اقبضوا عليه وأحضروه حيًا والأفضل ميتًا ! »
- « سمعنا وأطعنا ! »

وانطلق الرجال نحو مصدر الصوت ..

وحاولت (عبير) أن تتسلق ظهر الحصان ، لكن الارتباك جعلها تنسى ما ينبغى عمله بالضبط ..

تركت الحصان وراحت تركض ..

تركض عالمة أنها لن تصل لشىء .. عالمة أنها ستتعثر فى الظلام حتمًا .. عالمة أنهم حتمًا واجدوها .. يا للكارثة !.. يجب أن ...

كان ذلك حين شعرت باليد القوية الحازمة تسدّ فمها .

وشمت تلك الرائحة المميزة : رائحة العرق المختلط بالتبغ وحساء الفاصوليا والبازلاء ..

إنها رائحة الجوّال .. نعم .. هو كذلك !.. الآن ترى وجهه فى الضوء الخافت وترى البسمة الغامضة على شفتيه ..

وبصوت كالهمس وإن كان أكثر انخفاضًا يقول لها :

- « صمتًا !.. ودعينى أخرجك من هنا ! »

لِمَ لا ؟.. وهكذا تترك له يدها ؛ كى يقودها عبر ممرات مظلمة لا أول لها ولا آخر ..

وطاويط عديدة حلقت فوق الرءوس .. وصخور كثيرة تعثرت فيها الأقدام .. لكنها - فى النهاية - ترى النور .. وتعرف أنهما غادرا حزام الكهوف هذا إلى العراء ..

هناك ينتظرهما حصان أبيض رشيق يتطاير الشعر من معرفته .. وتلتمع عضلاته الجميلة المبللة بالعرق فى ضوء الشمس ..

ساعدها الجوّال على الركوب .. ووثب ليركب خلفها وأمسك باللجام ... وانطلق بالحصان لا يلوى على شىء .

دوت طلقتا رصاص أو ثلاث ..

لكنها كانت تعرف أنهما ابتعدا مسافة كافية ..

سألته على صوت الحوافر المتزايد :

- « كيف عرفت مكانى ؟ »

قال وهو يلوك لفافة تبغ (لا تعرف من أين جاء بها ويداه ممسكتان باللجام) :

- « إنها قصة طويلة .. »

وعاد يلوك اللفافة .. كان يثير دهشتها دومًا أن رعاة البقر يتعاملون مع السجائر باعتبارها أشياء تُمضغ ولا تُدخن ..

- « إذن احكها لى .. »

- « حين نغدو فى مأمن سأحكى لك كل شىء .. »

- « والحصان ؟ »

- « سرقته .. إن الحصان فى الغرب شبيه بجريدة فى قطار .. يقرؤها الجميع على التوالى .. والنتيجة هى أن أحدًا لا يشعر لحظة بحرمانه منها .. ، وبالتأكيد صاحب هذا الحصان المسروق يبحث الآن عن حصان آخر يسرقه .. »

- « يا لها من مُثُل ! »

- « إنها عدالة توزيع من نوع خاص .. »

* * *

كان الليل قد حلّ .. وأخيرًا يعود الجوّال إلى جذوره .

ينزع قميصه .. ويغسله فى الجدول ، ثم يعلقه فوق غصن شجرة ، ويفرش غطاء وكيس نوم على الكلأ ..

ثم إنه يتشمم الجوّ بعض الوقت .. ويشعل نارًا فى مجموعة من جذوع الأشجار .. ويضع ثلاثة أحجار كبيرة - أثافٍ كما يقول الأعراب - يضع فوقها إناءً صغيرًا ..

يفتح علبة طعام محفوظ بخنجر .. ويفرغ ما فيها فى الإناء ..

وبعد ثوان تتصاعد رائحة الطعام ..

يضع بندقية (ونشستر) ذات مقبض مزخرف فى متناول (عبير) .. ثم يصبّ الطعام فى علبتين من الصفيح يقدم لها واحدة وله واحدة ..

- « ما هذا ؟ »

سألته وهى تتشمم علبتها فى اشمئزاز .. فقال :

- « بازلاء .. »

كادت تنفجر حنقًا .. الوجوه الشاحبة لا يأكلون إلا البازلاء .. والهنود لا يأكلون إلا القديد .. أية حياة هذه ؟ وفى أية ظروف يمكنها أن تأكل صحنًا من الملوخية إذن ؟

وكأنما سمع أفكارها ؛ قال فى ضيق :

ـ « البروتوكول يحتم هذا النوع من الطعام .. »

ثم بدأ يعدّ القهوة فى وعاء صدئ آخر ..

سألته (عبير) وهى تتأمل تراقص اللهب :

ـ « كيف عثرت علىّ ؟ »

قال دون أن ينظر إليها :

ـ « الأمر هو نقش معيّن على حوافر الحصان .. حصانى الذى سرقته صباح اليوم .. هذا النقش يعنى أن صاحب الحصان هو من إخوان الدم .. ، إذن من المؤكد أن الحصان قد جاء بك هاهنا .. »

ـ « وكيف عرفت مقر اجتماعهم ؟ »

ـ « هذا هين .. »

ورفع وعاء القهوة من فوق النار .. وأردف :

ـ « لأننى واحد من إخوان الدم ..! »

* * *

سقطت علبة الطعام من يد (عبير) ، وبحركة لا إرادية شعرت بيدها تتسلل لتقبض على الـ (ونشستر) .

ـ « أنت ؟ إذن كنت تخدعنى كى ... ؟ »

أخرج من داخل خرجه قدحين معدنيين يشبهان أقداح البيرة .. وصبّ القهوة فيهما .. وقال بلا مبالاة :

ـ « ليس الأمر كما تظنين .. كنت واحدًا من إخوان الدم .. هل تعرفين (الكوكلوكس كلان) ؟.. تلك الجمعية السرية العنصرية التى تدعو لإبادة الملونين جميعًا ؟ إخوان الدم يدعون إلى الشىء ذاته .. ويقتلون الصفر والسود والحمر دون تمييز ...، ويؤمنون بأن هذا هو السبيل الوحيد ؛ ليسود العدل الكون .. »

ونقر على صدره فى فخر :

ـ « كنت أنا العضو (أوهايو) بين أفراد الجمعية .. وقمت بأعمال مجيدة حقًا .. إلى أن وجدتك ذات يوم بين أفراد قبيلة (السيوكس) .. ورحت أراقبك من بعيد .. شعرت بأننى لست شريرًا إلى هذا الحدّ .. والهنود ليسوا سيئين إلى هذه الدرجة .. فتاة رقيقة لطيفة مثلك .. رحت أغازلها بعينى ، وكان لى فضل إنقاذك من الدبّ عند الجدول .. ثم إنقاذك من قطاع الطرق .. هل تذكرين ؟ »

وضحك في انتصار :

ـ « هاها !.. نعم .. تنكرك لم يخدعني لحظة .. عرفت أنهم يدبرون شيئًا وأنهم أرسلوك بالذات لتراقبي الموقف في (هيل تاون) .. قررت أن أخلع قناعي وألعب دور الفارس الوحيد .. وأنقذتك مرة ثالثة في الحانة .. ، لكنك حاولت الفرار .. وأنا لا أعرف ممثل (هيل تاون) بين « أخوان الدم » ، لأننا لا نرى وجوه بعضنا أبدًا .. لكني تأكدت ـ حين رأيت آثار الحوافر ـ من أنه هو المقامر الذي كاد يغشني في لعبة (البوكر) .. وعرفت أنك الآن في كهف الاجتماعات ..

ولهذا لحقت بك لأنقذك للمرة الرابعة .. »

ظلت ترمقه شاردة .. ثم سألته بعد دقائق :

ـ « ولـ .. لماذا يفعلون ذلك ؟ لماذا يعذبون الملونين ؟ »

ناولها قدح قهوة يخرج البخار الساخن منه .. وقال :

ـ « إن هذه البلاد قامت على أكتاف مجموعة من المغامرين .. ومبدأ الحياة اليومي هنا هو (عش ودع الآخرين يموتون) .. إما أنا وإما هم .. ، إن هذه هي أرض الهنود .. ونحن نريدها منهم .. لهذا لا يوجد حلّ وسط .. نحن أوهم .. ، الغالبية تؤمن بالخداع كوسيلة

للحصول على الأرض .. أما بعض المتطرفين فيؤمنون بالدم .. ، إن إخوان الدم يعبرون عن النمط النفسي الأمريكي بشكل أكثر صراحة وأكثر فجاجة .. لكنها الحقيقة .. »

ـ « وما هو مكانك الآن ؟ »

ـ « أوه .. لقد تخليت عن موقعي ودوري حين أنقذت حياة فتاة ملونة .. ولم أعد أطيع الأوامر التي تصلنا بالحمام الزاجل .. لهذا أنا المرشح رقم واحد للقتل الآن .. وأراهن على أن اجتماع اليوم كان مخصصًا لي ..، الآن يوجد ثلاثة مارشالات للولايات المتحدة يبحثون عني واثنا عشر قاتلاً .. إن شعبيتي تزداد حقًا .. »

وأخرج من جيبه (هارمونيكا) صغيرة راح يصفر عليها .. ثم ـ بصوت أجش خفيض ـ راح يغني :

« أنا مطلوب حيًا أو ميتًا .. »

لهذا سأرحل يا صغيرتي ..

ولكن من سيبكي من أجلي ؟ من سيصلي على روحي ؟

« حين أتدلى من حبل المشنقة ؟! »(*)

(*) أغنية حقيقية من أغاني الغرب ..

ثم ازداد صوته رخامة :

« أنا راعى بقر مسكين وحيد .. »

« وموطنى بعيد .. بعيد .. »

ثم بدا عليه الارتباك .. وغمغم :

ـ « معذرة .. هذا المقطع ليس من تأليفى .. إنه خاص بالزميل (لاكى لوك) .. وقد اختلط علىّ الأمر ! »

ـ « لا عليك .. ولكن قل لى : هل ارتكبت مذابح كثيرة ؟ »

ـ « آلاف منها ! » ـ هتف فى حماس ـ « .. لقد سرت على خطى أبى العزيز .. وفى سن السابعة من عمرى رأيته يقتحم كوخ صياد فراء أبيض ويفجر رأسه بالرصاص ، لأنه تزوج هندية وأنجب منها ! »

تصلبت (عبير) .. وسألته :

ـ « هل .. هل أنجبا بنتا ؟ »

ـ « أظن هذا .. كانت من نفس سنى ! »

ـ « وتذكر اسم الهندية ؟ »

ـ « أظن هذا أيضًا .. لأن الصياد صاح حين رأى أبى : (لقد نالوا منا يا بصقة الجاموس !) .. تصورى هذا !.. بصقة الجاموس ؟.. »

« إن لديكم ـ معشر الهنود ـ أسماء لا تصدق !.. »

فى اللحظة التالية وجد نفسه يحدق فى فوهة البندقية ..

وسمع (عبير) تقول فى قسوة :

ـ « إن أباك هو قاتل أبى .. ومن الواضح أننا سنتعادل الآن ! »

* * *



فى اللحظة التالية وجد نفسه يحدق فى فوهة البندقية ..

٩ ـ لا وقت للضغائن ..

ـ « ألست خائفًا ؟ »

ـ « ناب ! »

ـ « ألاحظ أنك عدت لـ (ناب) و الـ (ياب) وكنت قد نسيتهما فترة لا بأس بها .. »

ـ « إنها طريقة لإظهار اللامبالاة .. نوع من لعب دور (البارِد) .. ولا حاجة بى لذلك مع طفلة مثلك .. »

ـ « هذه الطفلة ستفجر رأسك حتمًا .. »

ـ « سيكون قرارًا خاطئًا »

قالها وجرع جرعة كبيرة من القهوة :

ـ « إن حامية الجنرال (سكوت) متجهة الآن لتأديب (السيوكس) .. وعليك أن تصلى هناك قبل الحامية لتنذرى قومك .. من دون عونى لك يصير هذا مستحيلاً .. »

وخلع قبعته وحك خصلات شعره البنى الذى لم يعرف الماء منذ قرون !

ـ « ثم إنك لن تقتلينى لأننى أروق لك ..! »

ـ « مغرور ! »

- « هذه هى الحقيقة .. فلمطى لا يقاوم .. النساء يعشقن من ولدوا خاسرين .. أولئك المشاغبين الذين لا يمكن ترويضهم .. ، وأنا قد أنقذت حياتك مرارًا .. ولا أظن أنك تقتلينني من أجل ما قارفه أبى .. ، وهكذا ترين صعوبة الموقف ، فارس وسيم يعرف الطريق إلى معسكر (السيوكس) أنقذك من الموت أربع مرات .. فهل يموت ؟ »

- « تاب ! »

قالتها وهى تخفض فوهة البندقية فى تردد ..

الواقع أنها لم تكن تنوى شيئًا .. هو فهم هذا دون جهد .. ، خاصة أنها لم تلق هذا الذى يقولون : إنه أبوها قط .. فكيف تنتقم له ؟ كل ما هنالك أنها وجدت من واجبها أن تفعل شيئًا ما ..

قالت فى سأم :

- « إننى لا ...... »

- « ششش »

قاطعها وهويضع سبابته أمام شفتيه .. ورأت مسدسيه فى يديه .. لا تدرى متى ولا كيف أخرجهما من نطاقه .

وراح يرمق الأشجار المظلمة فى تحفز ..

بعد ثانية تحركت غصون الأشجار ، وبرز وجه

مغطى بالشعر الأبيض حتى إن (عبير) حسبته ذئبًا عجوزًا ..

ثم أدركت أنه جندى .. جندى نامى اللحية .. يرتدى بذلة رمادية اللون وعلى رأسه (كاسكيت) .. وقد بدا فى حال مزرية ..

هتف الجندى وهو يرفع يديه :

- « لا تطلق النار يا راعى البقر .. »

وتربع على الأرض .. وراح يزحف نحو النار ببطء .

أعاد الجوّال مسدسيه إلى قرابهما .. وسأل وهو يعود للجلوس :

- « منذ متى ؟ »

- « ثلاثة .. »

- « آخرون ؟ »

- « ماتوا .. »

أخرج الجوّال رغيفًا من الخبز الجاف .. ونهض إلى الجواد فتناول من سرجه زجاجة صغيرة .. ، قذفهما نحو الجندى ..

فراح هذا يلتهم الخبز ويجرع من الزجاجة ككلب جائع ..

لم تفهم هى شيئا .. لكنها أدركت أن الجوّال يفهم كل شىء كعادة رعاة البقر الوحيدين .. لم يكن هناك كثير من الكلام لأنه لا داعى له .. إنها لغة قوم يفهم بعضهم البعض بوضوح ..

مالت عليه تسأله هامسة عما هنالك .. فقال لها بلا مبالاة :

– « الأمر واضح .. هذا جندى من جيش الجنوب فرّ من فرقته مع آخرين منذ ثلاثة أيام .. مات الآخرون على يد الجنود الاتحاديين ونجا هو .. »

– « تعنى الحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال والجنوب ؟ »

– « طبعًا .. ليس التزامن دقيقًا .. لكنك فى (فانتازيا) حيث يتواجد كل شىء فى وقت واحد .. »

– « وما هذه اللغة المختصرة ؟ »

– « هى لغة أناس سئموا الكلام .. »

كان الجندى قد فرغ من الأكل .. فقذف له الجوّال لفافة تبغ أشعلها هذا من النار .. وسأله الجوّال :

– « كيف ؟ »

– « الدخان .. إن رائحته قوية .. »

– « فرسان ؟ »

– « لا .. (شيين) .. أربعة أميال .. »

– « إذن نطفئ .. »

وتناول دلو الماء وسكبه على النار فساد الظلام إلا من رائحة الدخان المحتضر .. كان الظلام دامسًا ثم عادت (عبير) ترى النجوم تزداد وضوحًا وتألقًا .. وعادت تتبين قسمات الوجوه ..

قال الجندى وهو يهرش لحيته :

– « نرحل فجرًا .. هل أبدأ أنا الحراسة ؟ »

– « ناب ! »

– « إذن أنا بعدك .. »

– « ياب ! »

وتمدد الجندى على الكلأ وبعد ثوان تعالى صوت غطيطه ..

أشار الجوّال إلى كيس النوم لتدخل (عبير) فيه ، وأشعل لفافة تبغ .. وجلس ووضع الـ (ونشستر) على ركبتيه ..

قالت له وهى تلهث شاعرة بالبرد :

– « هل حقًا سننام وهو متيقظ ؟. أنا لا أثق به »

– « أنا كذلك .. لهذا سأتولى الحراسة طيلة الليل ولن أوقظه ! »

- « يمكننى أن أتبادل معك .. »
- « ناب !.. غدا يوم عصيب .. »
- « تصبح على خير .. »
- « أوه بيه .. »

وأغمضت (عبير) عينيها ..

شعور ممتع هو أن تغفو فى أحضان الطبيعة ، بينما يسهر هذا الفارس الوسيم القوى على حراستها .. لماذا لا ترى أمثال هذا الجوّال فى دنيا الواقع ؟ كل من تراهم من رجال لهم كرش كبير .. ويعودون لديارهم منهكين غارقين فى العرق .. يحملون الجريدة باليد اليسرى والبطيخة باليد اليمنى ، وكل مغامراتهم فى الحياة هى ركوب الحافلة أو نيل علاوة ..

* * *

كان ذلك عندما تبين الخيط الأول من الفجر ..

وصحت (عبير) من النوم شاعرة بأن هناك شيئًا ما على غير ما يرام .. ، وحين فتحت عينيها أكثر رأت التالى :

١ ـ جندى الجنوب لم يعد راقدًا .

٢ ـ الجوّال يقف رافعًا يديه إلى أعلى .

٣ ـ لا توجد بندقية معه .

٤ ـ أربعة من (إخوان الدم) يقفون شاهرين مسدساتهم فى وجه الجوّال .

ظلت راقدة ترقب الموقف ..

كان أحد الرجال الملثمين يضحك .. ويتكلم بصوت مألوف تذكرت عبير أنها سمعته فى الكهف :

- « والآن يا (أوهايو) ينتهى سفرك الأبدى ! »

تراجع الجوّال خطوة للوراء .. وفى ضيق تساءل :

- « كيف وجدتمونا ؟ »
- « تنسى دومًا أن حوافر خيولنا مميزة .. كان من السهل أن نجد آثار الحدوات خارج الكهف ، وكانت تقود إلى هنا .. ثم شممنا رائحة الدخان .. أنت الفارس الوحيد فى العالم الذى ينسى اتجاه الريح حين يتناول عشاءه .. »

قال الجوّال وهو يشعل لفافة تبغ غير عابئ بإثارة توترهم :

- « إذن فلننه هذه اللعبة سريعًا .. »

هتف أحدهم فى زميله :

- « اتلُ قرار الإعدام .. »

أخرج هذا الأخير قطعة من الورق .. وفتحها وراح يقرأ بصوت مسموع :

ـ « إنه فى ٨ مارس عام ١٧٦٨ تقرر إعدام العضو (أوهايو) لخيانته العظمى ، وخروجه من جمعية (إخوان الدم) بعد ما أقسم قسم الدم .. وليكن فى دمه عبرة لكل خائن .. »

صاح الجوّال مقاطعًا :

ـ « لحظة يا شباب .. كيف عرفتم أنه أنا ؟.. إن أحدًا لم ير وجهى سوى (الأخ الأكبر) .. »

ـ « كلنا نعرف سماتك منه .. ونعرف عاداتك .. »

ثم ارتفعت المسدسات نحو الجوّال .. وأردف الرجل :

ـ « هلا تلوت صلاتك الأخيرة يا (أوهايو) ؟ »

فى اللحظة التالية دوت أربع طلقات ارتج لها سكون الغابة ..

وحلقت الطيور فى الهواء محنقة لإزعاجها مبكرًا ..

وعلى الكلأ تكومت أربع جثث ملثمة والدم ينزّ من أجسادها ..

رفع الجوّال رأسه مدهوشًا ليرى ماذا حدث ..

رأى الجندى يبرز من وراء الأشجار حاملاً مسدسيه .. مسدسًا فى كل يد .. والدخان ينبعث من الفوهتين ..

قال الجندى وهو يقذف بالمسدسين نحو الجوّال :

ـ « هاك !.. معذرة .. »

تساءل الجوّال وهو يعيد المسدسين إلى نطاقه :

ـ « لماذا .. »

ـ « لم أرغب فحسب .. »

هنا بدأت (عبير) تفهم .. لابد أن النوم غلب الجوّال ، وحاول الجندى سرقة المسدسين والحصان والفرار .. لكنه سمع هذه المحادثة ولم يطاوعه قلبه على ترك منقذه فى موقف كهذا ..

لذا أفرغ مسدسيه فى صدر المعتدين .. وعاد ليصارح الجوّال بأسفه لما حدث ..

قال الجندى وهو يجذب الحصان إلى مقربة :

ـ « (الشيين) .. سمعوا حتمًا .. »

ـ « إذن نرحل الآن .. »

ـ « خيولهم ؟ »

وأشار إلى الجثث الأربع .. فهزّ الجوّال رأسه موافقًا »

هذه المرة حصل كل منهم على حصان .. وتركوا حصانين فى الغابة عالمين أن (الشيين) سيجدونهما حالاً ..

دوى صوت صراخ الهنود الهجومى .. فصاح الجوّال وهو يركل خاصرة حصانه :

ـ « إنهم لا يضيعون وقتًا .. فلنهرب ! »

وانطلق الفرسان الثلاثة يشقون طريقهم وسط الأشجار .. بينما سهام الهنود تتطاير حولهم فى كل صوب ..

* * *

١٠ ـ المخدوعون ..

النهار البكر يتنفس فى كسل فوق الرُبا ..

وثلاثة فرسان يقطعون السهول على ظهور خيولهم قاصدين معسكر (السيوكس) ، بعدما فروا من (الشيين) ..

ولاح المعسكر من بعيد .. ودوت صرخات الكشافة تعلن للقوم أن ثلاثة فرسان يدنون من المعسكر ..

ورأت (عبير) عشرة خيول تدنو منهم يمتطيها (ذو الدمامل) وآخرون معه .. كانوا مدججين بالسلاح متأهبين للقتل فى أية لحظة ..

فما إن رآها (ذو الدمامل) حتى رفع ذراعه الأيمن بالرمح ؛ ليوقف الرجال المتحمسين عن يمينه ..

صاحت (عبير) بصوت متهدج :

ـ « (صخرة الماء) تحيى أخاها (ذو الدمامل) »

قال بصوت مرتاب :

ـ « أرى وجهين شاحبين إلى جوار (صخرة الماء) »

ـ « هما صديقان .. »

ثم أردفت وهى تنتزع شعرها الأشقر المستعار :

ـ « إن الحامية قادمة لتهاجم (السيوكس) .. »

ـ « يا لغضبة (أوجاما) !.. فليتخذ المقاتلون أهبتهم إذن .. ولنقم بإبعاد النساء والأطفال .. »

هنا رفع الجوّال يده طالبًا الكلمة .. ونظر نحو الفتاة طالبًا منها أن تعاونه فى الترجمة :

ـ « فليسمح لى المحارب بالكلام .. »

قالت (عبير) بلغة (السيوكس) :

ـ « آجو .. وا .. تشى .. سوها »

ـ « إن ما يحدث هنا هو نتيجة لعبة قذرة يمارسها بعض البيض .. وهؤلاء البيض يهمهم دومًا أن تنشب الحروب بين الهنود والجنود .. »

ـ « آما .. جى .. شاكا »

نظر الجوّال إلى (عبير) فى حيرة .. وبشك سألها :

ـ « هل هذه ترجمة كل ما قلت الآن ؟! »

ـ « إن لغة (السيوكس) بليغة حقًا .. »

ثم إن الجوّال أردف بصوت عال :

ـ « لا تقاتلوا البيض .. كل ما أرجوه هو أن تبتعدوا بمعسكركم عدة أميال .. ، إن أى صدام مع الحامية ستكون نتائجه وبيلة »

ـ « بونجا .. آيا .. هاه ..! »

صاح (ذو الدمامل) فى حنق وهو يلوح برمحه فى الهواء :

ـ « (السيوكس) لا يخافون الوجوه الشاحبة .. إنهم شجعان مثل النمور الجريحة .. ولا يبالون بالموت .. »

ترجمت (عبير) ما قاله فى تعاسة .. فردّ الجوّال :

ـ « أنا أعرف جرأة (السيوكس) .. لكن البيض يملكون بنادق ومدافع .. والمدفع يساوى عشرة رجال برماحهم .. »

الخلاصة أن هذه المناقشة طالت بعض الوقت ..

وفى النهاية اقتنع (ذو الدمامل) بأن يرحل مع عشيرته إلى واد بعيد .. ، على أن يترك لـ (عبير) و(الجوّال) مهمة إقناع الوجوه الشاحبة بالسلام ..

ولم تجرؤ (عبير) على إخباره بأن ما حدث كان نتيجة حتمية لحماقته ، وأن الجنرال (سكوت) ـ الدموى ـ لم يُخدع لحظة ، وحسب الاعتداء من طرف (السيوكس) ..

والآن ينطلق الجوّال ورفيقاه إلى الشرق باحثين عن حامية الجنرال ..

* * *

من بعيد تبدو أعلام الحامية وعرباتها ..

قال الجندى وهو يجذب لجام جواده :

ـ « إلى هنا تنتهى رحلتى يا راعى البقر .. أنا لن أدع هؤلاء (اليانكى)(*) كى يضعوا يدهم علىّ .. »

ـ « ياب ! »

وتبادل الرجلان تحية ودودًا مليئة بالمحبة .. تتلخص فى أن كلًا منهما ضرب بقبضته كتف الآخر .. ثم أدار الجندى جواده فى الاتجاه العكسى وراح ينتهب الأرض نهبًا ..

قالت (عبير) :

ـ « يا له من فراق مؤثر ! إنك لرجل مرهف الحس يا جوّال .. »

قال وهو يلوك لفافة التبغ :

ـ « لا حيلة لى فى رقة مشاعرى .. »

ثم جذب لجام الجواد وانطلق ـ وهى وراءه ـ قاصدين معسكر الحامية ، ومن اللحظة الأولى أدركت (عبير) أن شيئًا ليس على ما يُرام .. ليس من المعتاد أن يحتشد الناس بهذه الطريقة حول شىء ما .. وليس

(*) فرسان الشمال ..

من المعتاد أن يكون هذا الشىء ممددًا بلا حراك .. وأن يبرز سهم هندى ذو ريش من بين لوحى كتفيه ..

كان الموقف كالتالى : أحد الجنود قد لقى حتفه بسهم هندى فى ظهره .. وكان ممددًا على الأرض فى غباء ، على حين وقف الجنود حوله يتبادلون السباب والعبارات الغضبى ..

وكان الجنرال جاثيًا على ركبة واحدة جوار الجثة يتفحص السهم بأنامله ، ويدخن السيجار مفكرًا ..

وهنا رأى القوم (عبير) والجوّال .. فصاح صائح منهم :

ـ « إنها هندية .. هَندية من (السيوكس) ! »

فى اللحظة التالية رأت (عبير) عشرات ـ لا بل مئات ـ البنادق تصوّب نحوها .. وسمعت الصيحة المعتادة :

ـ « اقتلوها يا شباب !.. إن الهندى الطيب هو الذى مات ! »

هبّ الجنرال رافعًا يده اليمنى صائحًا :

ـ « توقفوا يا أبنائى !.. يكفى القتل والدماء ! »

ثم هتف وهو يلوك سيجاره :

- « ادخروا قواكم لذبح هؤلاء المتوحشين فى معسكرهم ..! »

- « إن الجنرال إنسان حقًا .. »

فى هذه الآونة كان الجوّال قد ترجل بدوره ، وراح يتفحص الجثة فى فضول .. ثم إنه أعاد تثبيت القبعة على رأسه .. وقال للجنرال وهو يشير للسهم :

- « هذا السهم لم يطلقه هندى يا جنرال .. بل أطلقه رجل أبيض .. رجل يهمه أن يستفز الجيش .. »

- « ماذا تعنى يا بنى .. »

- « أعنى أن أثر الوتر غير ظاهر على مؤخرة السهم .. لقد انطلق هذا من قاذفة سهام وليس من قوس.. وأراهن على إن « إخوان الدم » هم من فعل ذلك .. »

- « إخوان ماذا .. »

- « « إخوان الدم » .. تنظيم من البيض يسعى لإبادة الهنود .. »

- « يبدو لى تنظيمًا خيرًا ! »

- « ربما .. لكن وظيفتك تحتم عليك التظاهر بالحياد .. توجد معاهدة بينك وبين (السيوكس) عليك أن تحترمها ما لم يثبت العكس .. »

- « لقد ثبت العكس بالفعل ! »

- « لم يثبت شىء .. سهم هندى مزيف .. وامرأة حمقاء تزعم أن (الشيين) هاجموا عربتها .. ولقد فرت هذه المرأة من فندقها صباح اليوم .. »

- « حقًا فرّت ؟ »

- « ياب ! »

وقف الجنرال عاجزًا عن اتخاذ قرار صائب ..

فى اللحظة التالية تعالى غبار الخيول فى الأفق .. وهتف هاتف إن مجموعة من الفرسان البيض قادمة .. »

واستطاع الجوّال أن يرى ركب الفرسان .. كانوا مجموعة من رجال (هيل تاون) يتقدمهم الشريف ومساعده ، والمقامر المحترف .. وبلطجى الحانة .. وكان بعض الرجال مسلحين بالفئوس وبعضهم بالحبال .

وعلى مسافة أمتار توقف الركب .. وتقدم الشريف بضع خطوات إلى الأمام بجواده .. وهتف فى الجنرال :

- « جئنا يا جنرال لنعاونكم فى تأديب هؤلاء المتوحشين .. »

وقال آخر وهو يجذب لجام جواده :

- « إن الجيش والقوات المدنية مرغمون على التكاتف .. فكلنا نعمل من أجل (أمريكا) .. ولا تهم اليد التى تذبح أطفال (السيوكس) طالما هى يد أمريكية مباركة ! »

ـ « مرحى ! »

ـ « بالرب نؤمن .. »

تقدّم الجوّال بضع خطوات من جواد الشريف .. وتأمل الأرض .. ثم رفع عينيه لتلتقيا بعينى الرجل .. وفى شىء من السخرية تساءل :

ـ « لم أرك متحمسًا إلى هذا الحدّ من قبل يا شريف »

ـ « لأننى أهوى العدل يا راعى البقر .. »

انحنى الجوّال على ركبته .. وتفحص آثار أقدام الجواد على الرمال .. ثم صاح فى الشريف :

ـ « من أين تجىء بهذه الحدوات الجميلة لجوادك ؟ »

ـ « عم تتساءل بالضبط ؟ »

ـ « إن هذه النقوش على الحدوات تذكرنى بشىء ما .. ألا ترى هذا معى ؟ »

هنا كانت (عبير) قد فهمت ..

كان هناك حصان يحمل هذه الحدوات فى (هيل تاون) .. وقد فرّت هى به .. معنى وجود حصان آخر أن هناك اثنين من (إخوان الدم) فى البلدة .. هذا مستحيل إلا لو كان الشريف هو ....

ـ « زعيم جماعة (إخوان الدم) ! »

قالها الجوّال وهو يشير إلى النقوش على الرمال ..

* * *

قال الشريف وهو يجفف العرق على وجهه ، ويرفع السروال الذى تساقط عن كرشه العملاق :

ـ « إخوان ماذا ؟.. بمَ تهرف يا راعى البقر ؟ »

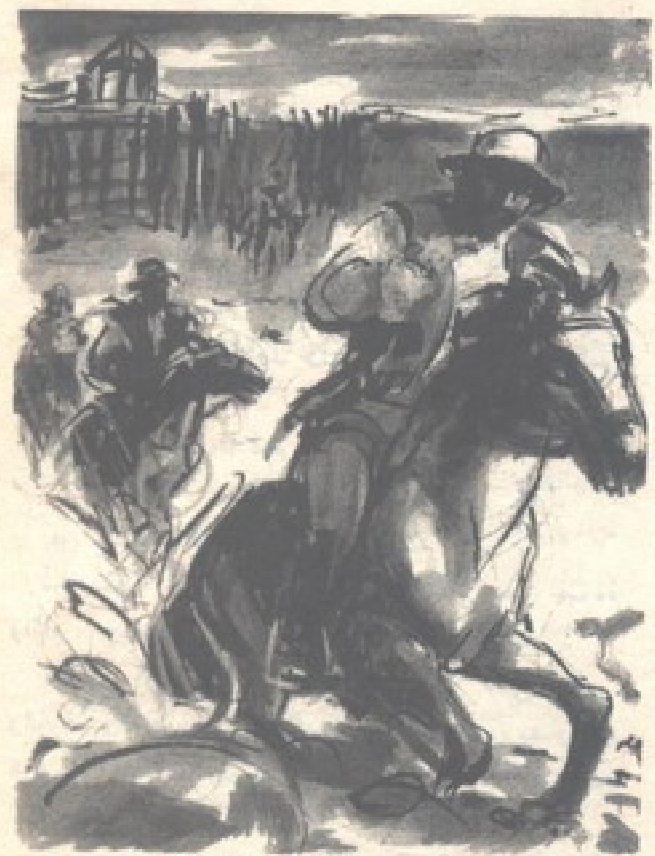
قال الجوّال بينما الصمت الرهيب يغمر الجميع :

ـ « أنت تعرف أننى محق .. كنت تتظاهر بالكسل والتراخى .. ومعنا كنت تغير نبرات صوتك فلم أستطع ـ ولم يستطع عضو (هيل تاون) نفسه ـ أن يتعرفك .. لكنك ظللت متشبثًا بالبروتوكول الأخرق الذى يحتم أن تضع هذه الحدوات على حوافر حصانك .. لكنك تعرفنى جيدًا .. كنت ترانى طيلة الوقت .. وأنت من جندتنى تلك الليلة فى (أوهايو) .. سيكون سهلاً علىّ أن أكشف جرائمك للعدالة .. والمشنقة هى العلاج الناجع لكل الأمراض العنصرية .. »

ـ « أنت غدوت ثرثارًا يا راعى البقر .. »

قالها الشريف وهو يداعب لجام جواده .. ويردف :

ـ « لقد كانت شيمتك الصمت .. وهذه هى مشكلة أمثالك .. يظلون بصحة طيبة طالما حافظوا على صمتهم .. لكنهم ما إن يتخلوا عن هذا الصمت حتى تحين نهايتهم المريرة ! »


صاح الجوّال بوجه غارق فى الدماء والرمال .. ونهض على ركبتيه .. وهرع إلى جواده وامتطاه ..

اللجام ينطلق كالرصاصة فى وجه الجوّال الذى كان لا يزال راكعًا على الأرض قرب حوافر الحصان ..

وصرخ هذا وهوى فوق الرمال .. لابد أن الألم كان مريعًا .. ولكن الجواد لم ينو تركه لحال سبيله .. راح يعابثه بحوافره ويخلطه بينها دون رحمة أو نية عطف ..

هتف الجنرال وقد أحنقه ما يحدث :

ـ « توقف أيها الشريف حتى تفهم ما يحدث ! »

لكن الشريف لم ينتظر .. سرعان ما أدار مقود جواده وانطلق لا يلوى على شىء مبتعدًا عن حشد الجنود .. وحاول أحد الجنود أن يوقعه بجذب اللجام .. لكنه تلقى ركلة فى وجهه أطارت الأسنان الثلاث الباقية فى فمه ..

ـ « هاجمووووا ! »

كذا صاح الجنرال ملوحًا بسيفه .. وعلى الفور اتخذ الرجال أوضاع التصويب نحو الفارس المنطلق بجواده ليختفى فى الأفق ..

ـ « لا !.. دعوه !.. إنه لى ..! »

صاح الجوّال بوجه غارق فى الدماء والرمال .. ونهض على ركبتيه .. وهرع إلى جواده وامتطاه ..

وجذب اللجام .. فلم تر (عبير) مفراً من امتطاء جوادها للحاق به .. فهى لا تريد أن يهلك هذا المعتوه .. يجب أن تكون جواره لتمنع هذا ..

صاح الجنرال فى رجاله :

ـ « لا تطلقوا النار يا رجال .. دعوا هؤلاء المعتوهين يسوون مشاكلهم مع بعضهم .. »

ثم إذ رأى بعضهم مازال مصراً على التصويب :

ـ « كفى !.. سأحول أول من يعصى أمرى إلى محاكمة عسكرية ! »

فخفض الرجال بنادقهم آسفين ..

* * *

بين الأشجار الكثيفة توقف الشريف ..

من جعبته أخرج شيئاً ما .. هذا الشىء هو عباءة ولثام .. وضعهما على رأسه فغدا من إخوان الدم ..

سيكون الانتقام رهيباً .. ولن يقتصر على الحمر والصفر والسمر ، بل سيشمل البيض الذين يعاونون هؤلاء .. أولئك الذين لا يفهمون فلسفة هذا المجتمع الخالصة ..

ولكن يجب أولاً أن يجد مكاناً آخر للاجتماعات ، ثم يرسل الحمام الزاجل إلى من بقى من رجاله .. وعندئذ

يبدأ المرح .. سيكون عليه أيضاً أن يجد أعضاء جديدين لـ (هيل تاون) وسواها من المدن ..

أما عن أعقد ما فى الأمر فهو البحث عن شخصية جديدة فى بلد جديد .. ربما صار صاحب حانة أو مارشالاً جائلاً .. من يدرى ؟ للأسف لا توجد مهن كثيرة فى الغرب للاختيار فيما بينها ..

وفجأة لم يدر بنفسه إلا وهو يطير من فوق صهوة الحصان ؛ ليتمرغ أرضاً ، وتتهشم كل عظامه ..

أدرك أن هناك حبلاً يحيط بجسده ، وأن هناك من رماه بأنشوطته من مكان ما ..

بالفعل .. يرى قدمين أنثويتين وقدمين ذكريتين ترتديان حذاء الركوب ذا المهمازين ..

قال وهو يعتدل فى جلسته ويزيح لثامه عن وجهه :

ـ « أنت بارع يا جوّال .. »

ـ « ياب ! »

قالها الجوّال ودسّ لفافة تبغ مشتعلة فى فم غريمه .

قال الشريف وهو يلوك اللفافة :

ـ « والآن .. فلتنته هذه المسرحية .. »

صاحت (عبير) فى لهفة :

ـ « نعم .. نعم .. أطلق النار على رأسه يا جوّال »

ثم شعرت بالخجل من دمويتها ..

قال الجوّال وهو يرفع الأنشوطة عن خصمه ، ويلف الحبل حول ساعده :

ـ « أريد تسوية عادلة .. رجلاً لرجل .. الآن ! »

لاحظت (عبير) أن وجه الجوّال خال من الجروح .. كيف زال أثر اللجام من عليه ؟

هنا ـ على الفور ـ ظهرت الندبة على الخد .. وأدركت (عبير) أن (دى ـ جى ـ ٢) قد سها قليلاً ثم تدارك السهو !

الآن يفك الزعيم بقايا الحبل عن صدره وينهض ببطء :

ـ « أنت تريدها تسوية يا جوّال .. هذا يروق لى ..! »

* * *

الآن يسود الصمت الغابة ..

حتى الطيور كفت عن تبادل السباب .. والأشجار كفت عن الاهتزاز .. والهواء كف عن الصفير بين الأغصان ..

إنها أرهب اللحظات في قصص الغرب طرًا ..

المواجهة بين فارسين ..

فسحة خالية من الأشجار يقف الفارسان فيها متواجهين ، وبينهما مسافة عشرة أمتار تقريبًا ..

يد كل منهما تحوم جوار مسدسه الموضوع فى نطاقه .. وعيناه لا تفارقان وجه غريمه ..

قالت (عبير) ، فى هلع وهى تتوارى خلف جذع شجرة :

ـ « كنت أظنكما ستمشيان بضع خطوات وظهر كل منكما للآخر ثم تستديران وتطلقان .. »

قال الجوّال وهو يرمق خصمه فى ثبات :

ـ« تاب .. !.. هذه هى الطريقة الإنجليزية .. طريقة السادة .. أما نحن ـ الرعاع ـ فنتقاتل هكذا معتمدين على سرعة الإطلاق ودقة التصويب .. »

ثم تركها وراح يسير فى تؤدة تجاه خصمه ..

* * *

لاشىء سوى صوت الكعبين فوق الأرض ..

صوت رنين المهمازين ..

صوت الأنفاس الثقيلة المتوجسة ..

صوت الصمت ..

وهنا رجلان يوشك أحدهما ـ ولا أدرى من ـ على إفناء الآخر بعد ثوان ..

النصر للأسرع والأدق تصويبًا والأقوى أعصابًا ..
لا شىء سوى الـ ....

* * *

ـ « حان وقت العودة يا فتاة .. »

استدارت لترى من ...... فوجدت (المرشد) واقفًا يضغط نهاية قلمه كعادته وابتسامة مزعجة على شفتيه .

فى احتجاج صرخت :

ـ « لكننا لم ننته بعد ..! »

ـ « بالعكس .. لقد عدل الجيش عن الهجوم ، وانتهى (إخوان الدم) .. وساد السلام .. إن نتيجة هذه المبارزة تحصيل حاصل .. »

لم يدر متى ولا كيف هوت اللكمة على وجهه .. ثم غاصت الركلة فى أسفل بطنه ، فأطلق أنة وتهاوى راكعًا على ركبتيه :

ـ « أواااااه !.. أنت صرت شرسة يا فتاة .. إن تأثير هذه القصص العنيفة على أخلاقك لمثير .. أووووه !.. قلقى ! »

ـ « كل ما أعرفه أننى لن أتركك تبعدنى عن هنا ـ كما فى كل مرة ـ دون أن أعرف ما حدث للجوّال حقًا »

وهنا سمعت صوت الطلقة ..

* * *

رأت الجوّال يسقط أرضًا والدم يملأ أعلى ذراعه ..

صرخت فى هلع .. لم تصدق ما يحدث .. هرعت إليه ووسدت رأسه على صدرها .. وبوجه مفعم بالمقت نظرت إلى الزعيم :

ـ « أنت أيها الـ ...... »

كان واقفًا يرمقها بلا تعبير .. المسدس فى يده ينبعث الدخان من فوهته .. و ...

ثم سقط على وجهه كحجر ..

عندئذ تحرك الجوّال .. وفهمت (عبير) .. لقد انطلقت الرصاصتان فى ثانية واحدة .. وكانت رصاصة الجوّال هى القاتلة ..

همست فى أذنه :

ـ « أنت جريح ! »

قال لاهثًا :

ـ « هذه هى تقاليد القصة .. كل ما هنالك هو أننى سأمزق قميص الوغد ، وأصنع جبيرة .. فى قصص (الوسترن) لا يصير الرصاص مشكلة .. فقط فى المساء أحاول انتزاع الرصاصة بخنجر محمى .. و ..

من هذا ؟ »

وأشار نحو (المرشد) الذى وقف على بعد خطوات ينتظر حتى تنتهى (عبير) من الاطمئنان ..

ولم ينتظر الجوّال الإجابة .. بل أردف يجيب عن سؤاله :

ـ « أنت (المرشد) أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. فى خدمتك .. »

نهض الجوّال لاهثًا .. وقال وهو يمسك ذراعه :

ـ « أبلغ الإدارة فى (فانتازيا) أننى لم أتقاض راتبى منذ شهرين .. كما أننى طلبت مسدسين جديدين فلم يعبأ بى أحد .. »

ـ « إنه التضخم كما تعلم .. »

ـ « لطيف أن أعرفك يا زميل .. »

* * *

كان الغروب يلقى بعباءته الأرجوانية فوق الوجود ؛ حين ودع الجوّال (عبير) و (المرشد) وابتعد بجواده نحو الأفق الغربى .. فهو جوّال .. وحياته هى أن يجول حتى يموت ..

دمعة انحدرت على خد (عبير) وهى تسمعه يترنم من بعيد :

« أنا مطلوب حيًا أو ميتًا ،. »

لهذا سأرحل يا صغيرتى ..

ولكن من سيبكى من أجلى ؟

من سيصلى على روحى ؟

حين أتدلى من حبل المشنقة ......

* * *

خاتمة

فى قصتنا القادمة نذهب مع (عبير) إلى أرض الفراعنة ، ونركب عربة (رمسيس) الحربية لنواجه (الحيثيين) فى (قادش) ..

سيكون هناك الكثير من الغبار والخيول الثائرة والدماء ..

لكن هناك أيضًا متسعًا للخيال .. متسعًا لـ (فانتازيا) .

[تمت بحمد الله]

* * *

رقم الإيداع : ٥٢٦٦

الترقيم الدولى : ٥ ـ ٢٦٥ ـ ٢٦٠ ـ ٩٧٧

فانتازيا مغامرات ممتعة من أرض الخيال

روايات مصرية للجيب

ذات مرة فى الغرب



د. أحمد خالد توفيق

حين تأخذنا (عبير) إلى الغرب ؛ نعرف أننا سنواجه كل شيء .. الهنود الحمر الثائرين .. والوعاظ المزيفين .. والدببة الشهباء الغاضبة .. والجمعيات السرية التى شعارها الدم .. والأوغاد المتحرشين بكل قادم فى الحانات ... كل هذا وأكثر نلقاه فى مرة .. ذات مرة فى الغرب ....

الثمن فى مصر ١٥٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : [illegible]
فاكس : [illegible]